صديق النخلة

الطبعة الأولى
1445 هـ
2024 م

اسم الكتاب : صديق النخلة
التأليف :سيد الرشيدي
موضوع الكتاب : واية
عدد الصفحات : 176 صفحة
عدد الملازم : 11 ملزمة
مقاس الكتاب : 14* 20
عدد الطبعات : الطبعة الأولى
رقم الإيداع :2024/2664
الترقيم الدولي : 978 - 977 - 6697 - 850

يمنع طبع هذا الكتاب أو جزء منه بكل طرق الطبع، والتصوير، والنقل، والترجمة، والتسجيل المرئي والمسموع والحاسوبي، وغيرها من الحقوق إلا بإذن خطي من الدار.

دار البشير للثقافة والعلوم
elbasheer.marketing@gmail.com
elbasheernashr@gmail.com
01012355714 - 01152806533

سيد الرشيدي

صديق النخلة

روايـــة

الإهداء

أهدي هذه الرواية: لقريتي بهجورة،

ولمصر حبيبتي، وقبيلتي الرشايدة.

سيد الرشيدي

1 - الجسر

إذا رأيت مجنونًا لا تسخر منه عندما يتكلم بكلام غريب؛ لأن وراء كلامه هذا حقيقة أخفتها الأيام، وأخفاها جنونه. وفي حياة كل مجنون قصة مؤلمة قاسية شديدة القسوة، ولا يعرف قصته إلا المحيطون به والمقرَّبون منه، وأحيانًا يعبر عن قصته ببعض الكلمات والتصرفات التي تصدر منه.

ولو اطلعت على قصته لعذرته، وتعاطفت معه وساعدته.

***

الجسر: هو الماضي والحاضر. الماضي؛ لأن عليه بعض الآثار القديمة التي تذكرنا بأجدادنا الذين عاشوا عليه فترة من الزمن.

وحاضرنا؛ لأننا جرينا على ظهره.

كان ملاذنا الوحيد نتجمع عليه كل ضحى لنلعب ونمرح ونضحك، لقد قطَّع الحلف والشوك أرجلنا من كثرة الجري على الجسر.

تعلقت به أرواحُنا لدرجة أن من يتأخر ولم يأتِ في موعده على الجسر يعاقب على تأخره.

وعليه كنا نتدحرج كحبات الرمان، ونتمرغ على ترابه اللين الحنون.

هو محل الصبا والذكريات، فعليه حكايات مجتمع بكل أفراحه وآهاته، بل كتاب من التاريخ مفتوح فيه الغامض والواضح، وقصص من الحب الخالد.

تحيط به الخضرة من كل جانب، وزراعات القصب حوله تزينه وتجعله ذا رونق بديع، وجداول المياه الرقراقة حوله، وتمر بجانبه لتضيف لحسنه البديع بعض الجمال، وأشجار الصفصاف الخضراء تتمايل ليعم الهواء النقي الطبيعي، وشجر السَّيسبان بخضرته البديعة، وشجرة النبق العتيقة التي تحكي الماضي والحاضر حيث يتسامر تحتها الصغير والكبير، وأشجار النخيل ببلحها الملون ذي الطعم والمذاق الرائع، وأشجار السنط والكافور والباقي من آثار الأجداد.

كل هذا يحكي لنا تاريخًا يحتاج لتوثيق؛ لتعرفه الأجيال القادمة.

وعلى هذا الجسر نشأت قصة حب تشبه قصة قيس وليلى، وكُثير عزة، قصة حب عذري مليئة بالحزن والآهات والدموع، لقد ضحى صاحبها بكل ما يملك، وترك كل شيء من أجل أن يعيش لهذا الحب المحترم الصادق، وعاش للذكرى، ولم يترك المكان تخليدًا لذكرى هذا الحب الذي عاش قصته، ولم يظفر به ليعيش حياة سعيدة كريمة حتى أنه صُدم صدمة بليغة أفقدته عقله.

في ذات ضحى خرجت كعادتي للجسر؛ لأقابل الأولاد لنلعب مثل كل صباح، وعندما تجمعنا وجلسنا تحت النبقة للعب.

فجأةً سمعنا صوتًا قادمًا من بعيد؛ فنظرنا بترقب واهتمام، وجدناه «بهلول» قادمًا يجري ويصرخ بأعلى صوته على الجسر.

قلنا جميعًا بصوت واحد: بهلول المجنون الذي نخافه، ونحذر مقابلته في أي مكان.

وهو يجري نحونا وفي اتجاهنا حتى وصل عندنا.

وفي لحظة وصوله عندما اقترب منا سيطر علينا الرعب والخوف، بهلول بيننا، وأخذنا نرتعد، وانتحينا جانبًا عنه تحت

النبقـة؛ لأننـا نخافـه ونحذره.

وقلـت في نفـسي وأنـا أتصببُ عرقًـا، وأنتفـض مـن الخوف: بهلـول الـذي نخافـه كثـيرًا، ونُضمر الخوف في أنفسـنا منـه، بل كنا نحلـم به بالليـل ونحن نائمـون، وكان أهلونا يخوفوننا بـه إذا لم ننم بالليـل، أو إذا لم نسـمع الـكلام يقولون لنا:

- «تسكت ولا أجيبلك بهلول؟»

من شدة الخوف نسكت أو ننام.

هو بيننا الآن، يا لها من مفاجأة.

وجالس بيننا تحت النبقة؟

خفنـا أكثـر عندمـا جلـس بيننـا، لقـد خيـم علينـا الصمـت والسـكون والحـذر؛ لأننـا نخـاف منـه، ونرتعـد مـن مجـرد ذكـر اسـمه.

فكيف هو بيننا الآن؟!

عندمـا أخـذ موضعـه للجلـوس بيننـا وهـو في غضبـه وقلقه، ويزعـق ويتمتـم ويشـتم كأنـه يشـتم شـخصًا يجلـس معنا.

وبصـوت مرتفـع زعـق زعقة رجـت المـكان، ونحـن نرتعش من شـدة الخـوف، وقـال: «أنـا هموته!».

وأخـذ يتمتـم بكلمات غريبة لا نفهـم منها شـيئًا، وكان يرتدي ملابـس رديئـة رثـة ممزقة، وكان حـافي القدمين مع شـدة الحر.

صورتـه مرعبة، أجعد الشـعر، بـارز العينين، عيناه تقـدح نارًا حمـراء، ويتصببُ عرقًـا، ملامحه توحي كأنه شـيطان.

وكان الجو شـديد الحرارة في شـهر يوليو، الأشـجار لا تتحرك من شـدة الحر، وكل شيء سـاكن مـن حولنا.

أخذ يصرخ ويزعق بصوت مرتفع ويقول:

- «أنا هدبحه، أنا هموته، أنا هقتله».

لقد تجمع بعضنا حول بعض خوفًا منه، كأن على رءوسنا الطير.

في ذلك الحين لم يمر أحد على الجسر لينقذنا من بهلول.

والسـكون يخيـم عـلى المـكان، لا أحـد ولا صـوت إلا نحـن فقـط، مجموعـة الأولاد نلعـب عـلى الجـسر.

ماذا نفعل وبهلول بيننا؟!

ويرعبنا بشكله المخيف وحركاته الغريبة، وكلماته التي لا نفهمها.

ولا نعرف ماذا يريد؟ ومن يقصد بكلماته هذه التي لم نفهمها؟

لم يجرؤ أحدنا على سؤاله: «عايز تقتل مين يا بهلول؟» من شدة الخوف.

ولكنه ما زال يصرخ ويتمتم بكلماته، ثم أفصح وقال:

- «أنا هقتل رسلان أبو محمدين الجعان، أنا هقتل رسلان الجعان، هقتله، هموته، هقطعه قطِّيع؛ لأنه قتل حبيبتي دلال».

يهدد ويتوعد وحالته كمثل رجل ممسوس، وينتفض ويرتعش، يبدو عليه القلق ويسيطر عليه، وهو يتكلم تمتلئ ملابسه عرقًا.

بعد أن انتهى من كلماته وتهديده خر مغشيًّا عليه، ونام على الأرض، وأخذ يبكي بأعلى صوته حتى بلل الأرض بدمعه.

عندما أُغشي عليه، ووقع على الأرض

تيقنَّا أنه لن يصيبنا بشر في حالته هذه، وأخذ قلبي يتحرك شفقة عليه، وقلت في نفسي:

- مسكين يا بهلول.

وأنا أقول ذلك قام الأولاد وجروا بعيدًا عن الجسر.

وقالوا بصوت واحد:

- «بهلول المجنون أهو».

وذكروه بحبيبته:

- دلال يا دلال يا دلال.

فجريت خلفهم حتى ألحق بهم وأنضم إليهم.

وعندما سمع اسم دلال وهو مغشيٌّ عليه

هب واقفًا كأنما لدغه ثعبان، وأخذ يحملق يمينًا وشمالًا.

ويقول:

- «فين دلال فين دلال؟»

وأخذ يتمرغ على التراب الحامي على الجسر في شدة الحر، ويقول باكيًا:

- «فين دلال فين دلال؟»

ثم قام يجري خلفنا ونحن نجري على الجسر، ويصرخ:

- «فينك يا دلال؟»

فقال له أحدنا:

- دلال قتلها رسلان يا بهلول.

فوقف مكانه عندما سمع هذه الكلمة، كأن الكلمة ذكرته بالحقيقة أن دلال قد ماتت.

فقمنا نجري خلفه بالطوب، وهو يجري أمامنا على الجسر.

ودخل القصب ليذهب لحبيبته وملاذه، وحضنه الدافئ وسكنه المفضل؛ وهي النخلة.

وهذه النخلة داخل حقول القصب، لقد نزع الشوك منها، وبسطها، وفرشها بالقش والخيش؛ لينام عليها بالليل والنهار، ليلوذ بحضنها، ويهرب من هذا العالم، وكل البشر ليعيش الوحدة وينفرد بذكرياته.

وغاب عنا في القصب، وهو يقول: «يا ولاد كذا اللي هيوصل هنا هموته». وقلنا لبعضنا:

- «مين طوبته توصل لنخلة بهلول».

وأخذنا نتسابق في الرمي، ولكن لا أحد طوبته تصل لنخلة بهلول؛ لأننا كنا صغارًا، وسواعدنا ليست قوية، وعزمنا ضعيف.

لم نسمع إلا صوته يصرخ ويهدد، ويزأر مثل الأسد الذي يريد أن يهجم على فريسته، ويصرخ ويتوعدنا ويقول:

- «يا ولاد، اللي ييجي هنا هموته، هقطعه، هكله بأسناني».

بعد هذه المشادة معه، والصراخ منه والتمتمة، تسلق نخلته

مـأواه ومـلاذه، تركناه وذهبنا، وتسـلقنا النبقـة، وأخذنا نلعب على الجسر ونجري.

ومنـا مـن ألقـى طوبًا عـلى النخـل ليـأكل «نارخًـا»[1]، ومكثنا عـلى الجـسر قريـب الغـروب، ونحـن نلعـب، ثـم توجهنـا لمنازلنا قبـل حلـول الظـلام؛ حتـى لا نتأخـر ويسـأل أهلونـا عنا.

(1) النارخ: البلح قبل نضجه.

2 - الحضرة

الحضرة: هي حلقات ذكر صوفي، مجموعات يتمايلون صفًّا مقابلًا لصف، وبينهم شخص يمدح، وهي أقرب للروحانيات، وهي منتشرة في جنوب الصعيد بكثرة، وكل مجموعة لها طريقة وشيخ ومريدون.

***

في كل سنة في آخر شهر يوليو، خالتي فهيمة أم إبراهيم العريض تعمل حضرة على روح زوجها أبو إبراهيم، وتحضر محمد أبو علي المداح، هو رجل عجوز سنه فوق الثمانين من مدينة قُفط قبلي محافظة قنا.

ومحمد أبو علي رجل ماهر خبير، عجوز، أسمر، وطويل، منحني الظهر، عليه ملامح من الزمن القديم، يمسك بيده سبحة الطريقة الصوفية.

ويمسك بيده عصا حديدية يتعكز عليها، ويمشي بخطوات

بطيئة يستند على أحد الشباب، ويلبس في يده خاتمًا من حديد، يضرب بالخاتم على العصا، ويرن بالخاتم كأنه يعزف ويقول:

- «مع الرنة ترنم، ترنم، تللم، تللم».

والناس حوله تذكر في الحضرة.

خالتي فهيمة تعمل هذه الحضرة في كل عام، وتدعو لها الناس من بلدتنا والبلاد المجاورة.

ويستعد الناس لهذا اليوم ويحضرون من بلدتنا، ويكون المكان مزدحمًا.

وفي العشاء تعد خالتي فهيمة الفطير (رقاق باللبن)، وتنادي في الناس بصوت مرتفع:

- «تفضلوا يا حبايبي، وادعوا لأبو إبراهيم».

حتى أنها تدعو نسوان البلد والأطفال لتحصل البركة؛ لأن خالتي فهيمة تعتقد في الحضرات وبركات الشيوخ والأولياء.

وتدعو المجاذيب والطيبين، وأصحاب الطرق الصوفية، والدراويش، ومريدي مقام السيد عبد الرحيم القنائي، وأصحاب الشيخ دياب، وكل المريدين، حتى بهلول له نصيب في الحضور، ويتعشى مثل الناس، ويذكر ويتطوح في الحضرة،

ويـأتي بأفعـال غريبـة.

بهلـول تعطيـه خالتـي فهيمـة مقرصـة عليهـا جلـة مدخنـة، وتضـع عليهـا البخور، ويمـر في الحضرة، ويبخر النـاس ويضحك ويتمتـم بـكلام، ويقول:

- «البركـة يـا صاحـب البركـة خدلـك شـمة تفـوق يـا ذاكر، حيّ حـيّ».

ويتطوح ويقول:

- مدد يا سيدي عبد الرحيم يا قنائي مدد.

وكل المجاذيب يفعلون مثله.

ونحـن نضحـك عـلى بهلـول، ويضحـك الجميـع مـن هـذا المشـهد الكوميـدي.

وأثنـاء مـرور بهلـول داخـل الحـضرة في وسـط الذاكريـن قام رجـل يسـمى «جعفـر» ونخسـه مـن الخلـف بالعصا.

فجـرى بهلول بسرعـة كأن ثعبانًا لدغـه، وصرخ بأعلى صوته، وجـرى في وجـه النـاس، وأخذ يتخبـط في الناس، والنـاس يقعون عـلى الأرض مـن شـدة التخبـط، وانقلبـت الحـضرة لفـوضى، واختلـط النـاس، وبهلـول يصرخ:

«يـا بـاي يـا بـاي، عفريـت عفريت حـيّ حيّ يـا سـيدي عبد الرحيـم يـا قنـاوي الحقـوني الحقوني».

تفاجـأ الجميـع، ووقـف النـاس في فـزع يترقبـون ويسـألون: مـاذا حـدث؟ مـاذا جـرى لـه؟ يـا جماعـة مـا لكم؟

ووقعـت المقرصـة مـن يـد بهلول حتـى وقعـت منه النـار على ثيـاب بعـض النـاس، وبعضهـم صرخ من شـدة النار.

ووقعـت جمـرة مـن النـار في كُـمِّ ثـوب أحـد الحضـور اسـمه صابـر؛ فـصرخ صرخة شـديدة، وأخـذ يجـري ناحية الترعـة حتى يغمـس جسـده في المـاء؛ لأن الجمرة بـدأت تحرقه وتلسـعه وتؤلمه، فحـاول أن يجـري ناحيـة الترعـة؛ لأن بيـت خالتي فهيمـة يقع على الترعـة مباشرة.

ومنهم من جرى ناحية الطربنة لينقذ نفسه.

وصار الناس في فوضى وعبث وتخبط.

وخالتي فهيمة تهدئ الناس وهي تبكي، وتقول:

– مـدد يـا سـيدي عبد الرحيـم، مدد يا سـيدي ديـاب، مدد يا حسـوب، أنقـذوني، الحضرة خربت يا أسـياد يـا أقطاب.

فقالت لها إحدى الحضور بصوت فيه شدة:

- حرام عليكي يا جدة قولي: يا رب.

وهي تقول:

- «كدا برضه خربتوا الحضرة؟»

فقام رجل من المدعوين يدعى الحاج عبد الهادي أبو عبد الرحمن، وهو ذو مكانة في البلد، وقال:

- «متزعليش يا فهيمة هتتصلح الأمور هتبقى عال دلوك».

وأخذ ينادي في الناس ويدعوهم للهدوء، ويشير بيده:

- تفضلوا يا جماعة، كله يتفضل ويجلس.

ونادى على الدراويش، وكل المريدين بعد أن تفرقوا.

ثم تكلم بصوت عالٍ وقال:

- تعال يا بهلول.

جاءه بهلول يجري، وقال:

- نعم نعم، تحت أمرك يا حاج عبد الهادي.

- «إيه اللي حصل؟»

رد بهلول وما زال الخوف والهلع يسيطران عليه، وقال بصوت متقطع:

- «أنا كنت ببخر الحضرة يا حاج، وحاجة لسعتني من

الخلـف، متقلـش طريشـة (أفعـى)، ولسـعتها حامية نار يـا حاج».

ونحن نسمع كلام بهلول ونضحك.

فقال له الحاج عبد الهادي:

- «يا بهلـول مينفعش كده، أنت مرعـوش وركباك العفاريت، يـلا من هنا مع السـلامة».

فأشار له:

- «روح عشان المكان يهدا».

فقال بهلول بلهجة احترام:

- حاضر يا حاج، تحت أمرك.

وأخذ يهز رأسه طوعًا:

- «همشي بس آخد منُّونتي[1]».

فنادى الحاج عبد الهادي على بعض الناس، وقال:

- «هاتله منُّونته وشوية فطير (رقاق)، خليه يمشي من هنا».

وبعد أن ضمن بهلول عشاه خرج متَّجهًا للجسر، ليذهب لمكانه.

وعندمـا خـرج بهلـول هـدأ النـاس، وبـدأت الحـضرة، وبـدأ الذاكـرون، وسـكن النـاس، وعـم الهـدوء.

(1) قرصة صغيرة.

وأثناء توجه بهلول للجسر خرجنا أنا وشلة العيال خلفه؛ لنزفه كالعادة، وقلنا:

- «بهلول المجنون أهو».

وعندما سمع أصواتنا أخذ يجري والكلاب خلفه، ونحن خلف الكلاب، إلى أن وصل للجسر، ونزل في القصب؛ ليذهب لنخلته وبيته الذي يئويه، وملاذه وحبه وعشه وأنسيته ورفيقته، ومكان نومه.

وتسلق النخلة، ونحن نراه على ضوء القمر، إلى أن وصل لأعلى، وعندما استقر واطمأن أخذ يشتم ويقول:

- «يا ولاد، اللي هييجي هنا هموته، يللا من هنا، زي ما هموت رسلان أبو محمدين الجعان».

بعد هذه الزفة لبهلول نظرنا لبعضنا ونحن واقفون على الجسر، وقلنا:

- «يللا بينا للحضرة».

وذهبنا لحضرة خالتي فهيمة، وتركنا «بهلول» وحيدًا على نخلته .

3 - دلال

الحب: هو مجموعة من المشاعر الإنسانية التي يحسُّ بها كل فرد تجاه شخص آخر يحبُّه، وهذه المشاعر تلازم صاحبها أينما ذهب، وأينما عاش، ويشعر باشتياق دائم لمن يحبُّه.

الحب هو الأنيس في الوحدة، والرفيق في السفر، وعندما تخلو مع نفسك وتتذكر من تحبُّه يمتلئ قلبك بالسعادة الغامرة، ويرسم على شفتيك البسمة، وإن لم يكن حاضرًا معك، لكنه في خيالك وعقلك وسويداء قلبك، وقد ملك كل تفكيرك.

الحب هواللحظات الجميلة الرائعة، وسروح العقل، ونبضات قلب زادت عندما حلَّ هذا الحب.

***

بهلول كان دائمًا يذكر دلال، ويتكلم عنها في كل لحظاته حتى عندما يعود له عقله، وعندما يكون في لحظات الصفاء، وعندما يكون جالسًا مع الناس، وعندما يذكرها يغيب عن الدنيا كأنه

في عـالم آخر، ويذكـر دلال وهو في قمة سـعادته.

وبالأكثـر عندمـا تغنـي أم كلثوم يخـرج عن شـعوره الدنيوي، بـل يـسرح بعيدًا عـن العالم الحـاضر، ويغنـي معها.

وكنـت أراه يذهـب لترعـة المـرة في مـكان بـين الأشـجار، ويجلـس عـلى شـط الترعـة، ويحـدق في المـاء، ويتكلم كأن شـخصًا في المـاء يتحـدث معـه وهـو يـرد عليـه، ويقـول:

- «متـى ترجعي يـا دلال؟ أنا مسـتنيكي هنـا، متعوقيش عليَّ، أنـا تعبت، فراقـك قتلني».

كل يـوم يذهب لهـذا المكان ويمكـث فيه وقتًا طويـلًا، وعندما يملُّ يبكـي ويعود لنخلته لينـام في حضنها.

لقـد دفعنـي فضـولي أن أعـرف كل شيء عـن بهلـول هـذا، وعـن قصتـه؟

ولمـاذا يجلـس في هـذا المـكان؟ ومـن دلال هـذه التـي يذكرها كثـيرًا؟ ومـن أيـن هـو؟ ومـا سـبب جنونه؟

كل هـذه الأسـئلة كانت تـدور في مخيلتـي، فقـررت أن أذهب لخـالي إبراهيـم، وأسـأله هـذه الأسـئلة؛ لأن خـالي إبراهيـم رجـل متحـدث جيـد، ويعـرف الكثير عـن بهلـول، وهو رجـل ذو مكانة

بـين النـاس، وكبير في السـن.

توجهـت عـلى الفـور لبيـت خـالي إبراهيـم، وعندمـا وصلت وجـدت خـالي يجلـس عـلى الدكـة أمـام البيـت، فألقيـت عليـه السـلام، فـرد عـليَّ، وقـال:

- «أمك عاملة إيه؟

- كويسه يا خال.

- كيفك أنت يا خال؟»

- بخير والحمد لله.

جلسـت بجـواره عـلى الدكـة، فوضـع يده عـلى كتفـي، وأخذ يحدثنـي برقـة الخـال، وقال لي مبتسـمًا:

- «تعـرف عـلى الرغـم أنك واد مشـيطن وعفريـت وضاربك الـدم إلا أنك بتفهـم وذكي».

خـالي ذو قلـب مـليء بالحنـان والسـماحة مـع جميـع النـاس في البلـد، وكلهـم يحبونـه ويقدرونـه، ولـه مكانـة عظيمـة في قلوبهم.

سألته مبتسمًا:

- يا خال.

- فرد عليَّ بحنوٍّ:

- نعم يا ولدي.

قلت له:

- «يا خالي بهلول المجنون دا منين؟»

قال لي مستغربًا:

- «ليه؟»

رددت عليه وأنا أبتلع ريقي بصعوبة، وقلت:

- «نفسي أعرف الراجل دا منين؟»

قال لي:

- «هو من بلد جنبنا اسمها حاجر غربينا بحوالي خمسة عشر كيلو.

وقال لي خالي:

- «عارف يا ولدي، بهلول دا من عيلة كبيرة ومحترمة، وأهله ناس كويسين».

سألته في تودد:

- «طيب يا خالي هو ليه قاعد في بلدنا ومش راضي يسيبها

خالص؟»

رد عليَّ خالي وكان هادئاً في ردِّه، وقال:

– هو يرتبط ببلدتنا بقلبه ومشاعره.

فقلت لخالي:

– لم أفهم يعني إيه؟

فرد عليَّ ضاحكًا:

– «أنا بقول: إنك ذكي عايز تعرف إيه؟»

قلت:

– «يعني إيه بمشاعره يا خال؟»

قال لي بعد تنهيدة ونفس عميق:

– «بص بهلول دا كان في شبابه فتوة ونزيه وكسيب، وكان تاجر كعروب[1]، وكان ييجي بلدنا في شهر يوليو عشان يجمع الكعروب من الناس، ويبيعه في فرشوط.

فسألت خالي السؤال المهم عندي الذي أريد معرفته:

(1) الكعروب: هو بقايا جذور القصب في الأرض، بعد قطعه يحرث، ثم ينشف، ويدق فيصير وقودًا للمقاهي، وفي البيوت. وكان يباع، وله سوق في مدينة فرشوط، وله تجار.

- يا خال.

- نعم يا ولدي.

- «مين دلال دي اللي دايمًا وأبدًا يذكرها بهلول حتى الناس سموه باسمها، وينادوه ويقولوا له: يا دلال؟»

فنظر لي خالي نظرة استغراب، وقال:

- «الكلام ده لسه أنت صغير عليه لما تكبر».

فقلت له راجيًا:

- «بالله عليك لتقلي يا خالي، أنا عايز أعرف بصراحة».

فنظر لي كأنه مرغم على الكلام، وقال:

- «حاضر، أمري لله، دلال دي يا ولدي صبية زينة ومليحة، وشها زي القمر في ليلة تمامه، وكانت تسكن هي وأمها على الجسر من الناحية القبلية، وكانت بت حلوة، وكان الكثير من الشباب يتمنى الزواج بها؛ لأنها جميلة وصبية، وأمها ست عجوزة وطيبة، وكان بهلول يقيِّل عندهم في وقت الظهيرة، أقلك؟

- نعم يا خالي.

- بهلول دا اسمه الحقيقي مش بهلول».

فقلت له:

- «أمال اسمه إيه يا خال؟»

فقال:

- اسمه عمران ابن جاد الكريم.

فقلت له:

- «أمال مين سماه بهلول؟»

رد خالي وقال:

- «اللي سماه بهلول العيال اللي قبلكم سنة خمسين من حوالي خمسة وعشرين سنة، وكان يرقص ويقول: بهلل بهليل، سموه العيال غني يا بهلول».

فقلت له:

- «ممكن يا خال لو سمحت تكملي قصة دلال؟»

قال:

- حاضر.

وأخذ يحدثني عن دلال وقصتها، وقال:

- «كان بهلول لما يخلص شغله ويلم الكعروب من الناس يريح عندهم، ويشرب ميه باردة من مزاير أم دلال، ويمكث عندهم وقت طويل تحت السنطة[1] اللي قدام بيت دلال على الجسر، ينتظر الجِمال تيجي من فرشوط عشان يحمل الكعروب عليها، عشان يروح بيه السوق تاني يوم».

وهو يتكلم ويروي لي القصة نظر لي بتنهيدة، وقال:

- «فحب بهلول دلال وعشقها وتمنى الزواج بها؛ لأنها مليحة وأمها ست طيبة، وكانت تكرمه وتحبه لشهامته ورجولته وأدبه، وكان بهلول لما يرجع من السوق يتسوق لأم دلال، ويجيب خيرات الله، ويأكل عندهم في بيتهم، وكان بهلول كريم وشهم ورجولة وطيب وشجاع؛ فحبته دلال وارتاحت له جدًّا، وكانت أمها توده وتقدره وتفضله، وتتكلم عنه وسط الناس، وتذكر شهامته ورجولته، وتقول عنه: إنه بيخاف علينا زي أهله. وقصتهم ذاعت في البلد والبلاد المجاورة، وعرفت الناس أن عمران ابن جاد الكريم سيتزوج دلال بت أبو خليل، وخطبها

(1) نوع من الأشجار ذات شوك.

وجـاب ليها دهـب وعداني[1] وسـوقها، وبقي يبـات عندهم بصفة دائمـة، وكان حـب يـضرب بـه المثـل في الوفـاء والصـدق حـب عمـران لـدلال، حتـى جـاب عمـران أهلـه وحـددوا الفـرح عـلى أن يتزوجـوا آخـر شـهر يوليـو ويبنـي عمران بيـت بالطينـة لدلال بجـوار بيـت أم دلال عـلى الجسر، وبنـى بهلـول البيـت وزينـه، وجـاب حصـير وفـرش، وجـاب سريـر جريـد[2]، وجهـز جهـاز كويـس، وجـاب لـدلال صنـدوق مـن فرشـوط وخلاص اسـتعد للجـواز، وكان سـعيد سـعادة كبـيرة؛ لأنـه سـيتزوج حبيبتـه دلال ويسـعد بيهـا، ويصبـح ببيت ومكان يأويـه هو حبيبتـه دلال، وقبل الدخلـة بيـوم حـدث حادث زلـزل البلـد، وزلـزل قلوبنـا، وقلب كل عطـوف يحـب السـعادة للبشر».

فنظرت له مشدوهًا:

– «إيه هو الحدث دا يا خال؟»

قال:

– رسلان أبو محمدين الجعان ربنا يحرقه.

---

(1) مثل الغوايش لكنها بلاستيك.

(2) من جريد النخل.

قلت له ملهوفًا:

- «مين رسلان أبو محمدين دا يا خال؟»

نظر لي متنهدًا وقال:

- «رسلان دا يا ولدي، دا كان حرامي ولص كبير، وقاطع طريق، وكان بيعمل مشاكل حتى مع الحكومة، لدرجة أنه كان بيخطف ناس من بعض البلاد، ويأخذ عليها إتاوات، وكان يقلب الدنيا رأسًا على عقب، لدرجة جدك العمدة الحاج محمد بلَّغ عنه وجات الحكومة والهجانة سنة 1948 مشُّوا جميع الناس من على الجسر، وهدموا بعض البيوت بسبب رسلان دا. رسلان أبو محمدين دا طمع في دلال وحاول يتزوجها، لكن أم دلال وأهلها رفضوا بكل قوة، وقالوا: إنها زوجة عمران ابن جاد الكريم من الحاجر، وكتب عليها وهي عيزاه، كيف يا رسلان تتزوج مرات راجل؟ لكن رسلان رفض وأصر أن يتزوج دلال، وهدد أم دلال وهدد عمران، وأخبر مهددًا لا بد عمران يطلق دلال حتى يتزوجها هو، وعندما رفض عمران والجميع هذا التهديد بدأ رسلان يضايق بهلول، ويسرق منه الكعروب، ويسرق جماله، ويبعت له مراسيل أنه يمشي من البلد، ويسيب

المكان، وميرحش بيت دلال تاني ويسبها وميتزوجهاش، لكن بهلول شجاع رفض كل التهديدات، ولم يرضخ لها، بل أصر أن يتزوج دلال؛ لأنه يحبها وهي تحبه، لما وجد رسلان أبو محمدين أن عمران أبو جاد الكريم رجل شجاع وعنيد ومُصر على الزواج من حبيبته، قرر رسلان يضربه في مقتل، ويقطَّع قلبه ويحرمه من حبيبته وحب عمره؛ فدبر أنه يخطف دلال ويقتلها؛ لأنه كان يغير من عمران؛ لأن دلال فضلته وأحبته وقبلت زواجه، فحسد رسلان عمران وحقد عليه فدبر الجريمة بالليل، وقبل الدخلة بيوم عندما اقترب فرح بهلول على دلال عمل رسلان عملته في نص الليل في نهاية شهر يوليو هجم رسلان وعصابته من الأوباش على بيت أم دلال، وأخذ دلال وكتَّفها وأخذها خارج البيت، وقتلها ورماها في ترعة المرة في المكان اللي بيجلس فيه بهلول ويعيط.

- وفي الصباح استيقظ الناس على صراخ أم دلال طلعنا نجري: مالك يا أم دلال؟ قالت: رسلان الحرامي خد بتي وهددني، وترك واحد عندي بالسلاح لصبح، ومعرفتش من الخوف أصرخ وأنادي، لما مشي صرخت عشان تيجوا وتشوفوا

بتـي فين؟

وكانـت تبكـي بحرقـة وتولـول: شـفولي بتـي فـين يـا أهـل البلـد؟ طلعـت النـاس تلـف وتبحـث في زراعـات القصـب عـن دلال، وجدوهـا مكتفـة وغرقانـة وميتـة في ترعـة المـرة.

كانـت صُبحيـة صعبـة ومؤلمـة، وكانت مأسـاة بـكل المقايس، وحـزن تقيـل، وكان معانـا عمـران، وكانـت حالته صعبـة وحزين حـزن رهيـب، يـصرخ ويبكـي مثـل الطفـل الصغـير، ولمـا شـاف دلال في الترعـة نـط في الترعـة بهدومـه عليهـا وحضنهـا وهـو بيـصرخ بأعـلى صوتـه، وبقي في الميـه وهـو حاضـن دلال، ويبكي بـكاء مـر، ويـصرخ بصـوت عـالي بحـزن وألم وحـسرة.

بصراحـة بكينا كلنـا، موقف مؤثـر ومؤلم وصعـب وحزين، قـام النـاس طلعوا عمـران مـن الترعة، وجـات الحكومـة تعاين الحـادث، وجهـزوا القتيلـة ودفنوهـا قـرب المغـرب عـلى مـا خلصـوا الأوراق».

فنظـرت لخالي والدمـوع في عيني متأثـرًا بحديثـه، متعاطفًا مع بهلـول، وقلت:

- «طيب يا خال، رسلان الحكومة عملت إيه فيه؟»

قال:

- «رسلان ربنا يحرقه بحثت عنه الحكومة فوجدوه في مكان يسمى السواقي حربي متخبي فيه، وأخدوه وتحبس ومات في السجن، وعمران من يوم حادث دلال عقله خف، وعلى الحال دا، ومش راضي يسيب البلد، وكل صُبحية يجلس في المكان اللي اتقتلت فيه حبيبته دلال».

4 - القوَّال

عندما يحب المرء حبًّا صادقًا يتدفق من قلب هذا المحب الشعر والخواطر، وأغاني الحب تعبيرًا عما يجول بخاطره وقلبه.

***

خرجتُ من عند خالي متوجهًا لبيتنا، وبينما أنا في الطريق أخذت أفكر في بهلول، قلت في نفسي: مسكين بهلول، لقد فقد عقله، وارتبط ببلدتنا وفاءً لحبه الذي لم يهنأ به بسبب الغدر والخيانة وعدم الضمير.

وكنت أمشي والجو حارٌّ في وقت الظهيرة، قرب أذان العصر سمعت صوتًا وضجيجًا قادمًا من على الجسر، فنظرت بعيني، فوجدتُ تجمعًا من الناس يقفون في حلقة، ويصفقون بأيديهم.

جريت نحو هذا الصوت لأعرف ماذا يحدث، فوجدت أولاد البلدة يقفون في حلقة وعددهم كثير، ووجدت داخل الحلقة «بهلول» يرقص، والجو حار، وكان حافي القدمين،

يتصبب منه العرق.

والأولاد يصفقون بأيديهم، وهو يرقص، ويغنون له:

- «يا دلال يا وله».

وهو يرقص كأنها رقصة الموت.

وعندما يسمع كلمة دلال يصل لأقصى نشوته، ويجلس على الأرض، ثم يهبُّ واقفًا، ويتمايل يمينًا وشمالًا، وهو سعيد بسماع اسم دلال.

يرقص بقوة وبدون وعي، وهو يرقص يبكي، والدموع تسيل على وجنتيه كأنها شلَّال لا ينضب.

وهو يرقص يردد مع الأولاد ويقول:

- «يا دلال يا وله،

كانت جميلة وعال يا وله،

قتلها الغراب يا وله».

الأولاد يصفقون ويغنون معه، ويضحكون جميعًا وهو في نشوته، ويتمايل ويرقص وكلهم بصوت واحد يقولون:

- «أيوه يا بهلول، ارقص عشان دلال تجيلك؟»

وقفتُ متأملًا في هذه الشخصية الوفية التي صدقت في حبها

لمن تحب لدرجة الجنون والهيام، وترك الدنيا وما فيها من ملذات.

وأخذت أفكر كثيرًا، وقلت: بهلول هذا لو لم يكن صادقًا في حبه لدلال لما أصابه الجنون، ولتزوج بعدها، وعاش حياته كبقية الناس وسعد، لكنه صادق في حبه، ما أجمل هذا الوفاء!

ونحن على هذه الحال، والجو حار، وبهلول يرقص، والجميع يصفقون ويغنون ويضحكون.

إلى أن جاء الأستاذ علي يوسف من عمله، وكان مدرسًا في المعهد الأزهري ببهجورة.

وعندما رآنا نتجمع حول هذا الراقص المنسجم في رقصه وبَّخنا.

وقال:

- «حرام عليكم، إيه اللي بتعملوه ده؟»

وأخذ يوجه لنا الكلام، وبالأخص للكبار منا، وقال:

- «الشمس شديدة، والغلبان دا حافي القدمين، والجو نار، طيب ارحموه، عيب عليكم يا شباب».

ووجه كلامه لأكبرنا، لحسان أبو سيد، وقال له:

- أنت صغير؟! أنا سوف أخبر أباك بهذا.

لم يتكلم حسان احترامًا للأستاذ، وطأطأ رأسه للأرض، واستحى وذهب متوجهًا لبيته.

وأخذ الأستاذ علي يفرقنا كلًّا على بيته.

فذهب الجميع ولم يبقَ إلا أنا وبهلول واثنان من شلة الأولاد، فجلس بهلول تحت النبقة التي على الجسر، وهو مجهد من الرقص ويتصببُ عرقًا، فجلسنا معه. وكان هادئ العقل، يتكلم بكلام رزين، وكان مؤدبًا ويعي ما يقول، لقد عاد له صوابه بعد هذا الرقص، وكان مبتسمًا ضحوكًا.

ونحن حوله كان يغني بعض الأغاني لأم كلثوم مثل: أغدًا ألقاك؟ وأغنية الأطلال، وكان عندما يغني هذه الأغنية ينظر إلى الجسر، ويشير بيده ويقول: «هنا كانت تمر دلال، هنا كانت تملأ الماء دلال من هذه الطرنبة اللي على الجسر»، ويشير ويغني بحب وصفاء نفس.

وكان يغني بعض المواويل الرائعة الجميلة وكان يقول:

«لما كنتِ تهلي

كان ينشرح صدري

يا مونساني فِـ ليلي

يا عمري

ولما كنتِ تغيبي كان

يتعصر قلبي

وحشاني يا دلال

امتى نلتقي؟

يا جوهرة مكنونة

وعند الإله مصونة»

عندما كان يغني هذا الموال، ويذكر دلال، ينهمر الدمع من عينيه بغزارة، وعيناه محمرَّتان، والحزن يملأ قلبه؛ كأن قلبه يعتصر ألمًا على فراق دلال.

وكان يقول بعض الحكم، ومن أقواله في الخسيس والنذل:

«أوعى تماشي الخسيس

ولا تدخله بيتك

يعرف أسرارك وربما

يخرب بيتك

أنا صاحبت واحد

واديته الأمان

عضني فِـ إيدي اليمين

والشمال كمان

عارفه كويس وزي ما

قالوا فِـ الأمثال:

الكلب أوفي من

الصاحب الشمال»

وكان يقول من القول ما أحلاه وأجمله مثل:

«دلال كانت زي الغزال اللي

فرحان بنفسه

خطواتها تهز القلب

لما كانت تخطر

كان قلبي ينشرح

مِـ الفرحة ويصيح ويقول: يا قمر

آه يا محلى صبحه

وكمان على رمشها لو شفته

يدوبك دوب

ونظراتها حلوة

وآه وكمان قده

شعرها طويل

وآه يا محلى رسمه

كانت زي الغزال

اللي فرحان بنفسه

صغيرة السن

زي البط يا محلى أكله

كانت بتعطر المكان

يا جمال شكلها

البدر يستحي منها

ومن نور خدها

وكان الورد يفتَّح ويرقص

من لمسها

كانت دلال زي الغزال

اللي فرحان بنفسه»

كنا عندما نسمعه يغني هذه الأغاني، ويقول هذه المواويل نشعر أنها تخرج من قلبه عن محبوبته نابعة من فؤاده، وقال كذلك وهو يبكي ويتألم، والألم ظاهر وواضح في كلامه وعلى وجهه:

«أنا المجروح

والجرح بيألمني

رمش الغالي

عدى عليَّ وصابني

خلاني أقول

الآه طول الليل وسابني

لو شفته ونَّبي

اوصف له همِّي»

وعندما سمعنا منه هذا الموال الأخير وهو يبكي أشفقنا عليه، وشعرنا بما يشعر، وتألمنا كما يتألم.

وبينما هو يتكلم ويغني ونحن جلوس معه مر بالطريق رجل من عزبة عمارة، وظل ينادي على بهلول.

ذهب إليه بهلول فأعطاه صرة بها أشياء، وقال:

- «خد دي يا بهلول».

شكره بهلول وقال:

- مع السلامة يا عم الحاج.

وجاء بالصرة وجلس معنا مرة أخرى، فطلبنا منه أن يغني ويقول لنا لأننا كنا نسميه: القوَّال، قال له أحد الجالسين: «قول يا قوال»؛ فاعتدل بهلول في جلسته ليقول:

«عشقت غزال عسل صافي أبيض

لما يهل زي القمر ضياه أبيض

كلامه أبيض زي قلبه أبيض

كان أبيض لكن قتله غراب أسود»

فقلنا جميعا بصوت واحد:

- «الله يا بهلول، إيه الروعة دي والجمال دا».

فرجوناه أن يقول أكثر وأكثر، فقال له أحد الجلوس:

- «قول يا قوال، وسمعنا تاني كلامك الجميل الروعة».

فقال هذا الموال الذي جعل أحدنا - وكان أكبرنا سنًّا -

يتأثر به حتى طلب من بهلول أن يعيده مرة ثانية.

قال:

«طول الليل أنا بحلم بيك

وبسهر مع طيفك بناجيك

أنت حبيبي وفين ألاقيك»

ونحن جالسون قررت في نفسي أن أذهب لنخلة بهلول حتى أرى مبيته ومكانه الذي يأوي إليه، وعندما هممت بالوقوف، قال لي بهلول:

- «رايح فين؟»

فقلت له:

- «لحظة وجاي».

قال:

- «طيب روح، أوعاك تطول عشان أنا بحبك، وبحب أقعد معاك».

عندما قال لي هذه الجملة تأكدت أن حبي وعطفي لبهلول كان في محله، وأنه يشعر بحبي له، وشعرت أن هناك شيئًا قويًّا يربطني به وبقصته.

تركتهـم، وعزمـت على أن أتوجـه لنخلة بهلول التي في وسـط القصـب حيـث ينـام في حضنهـا؛ لأعـرف الكثير والكثـير، لأطلع عـلى مـكان نومـه، وكيف مهـد النخلـة لينـام عليها؟ وكيـف يبقى وحـده بالليل يناجـي طيف دلال؟

إنـه لشـخص صبور، لقد شـدني صـبره ووفاؤه وحبـه لدلال؛ لذلـك شـدني فضولي لمعرفـة الحقائق عن هـذه القصة الخالـدة التي ذاع صيتهـا في ذلـك الوقت، وقـد حوتها ذاكرتي عبر السـنين.

5 - النخلة

الوحدة: لا أحد يحب أن يكون منعزلًا عن العالم، ولكن هذا يحدث رغمًا عنا عندما لا نجد من يفهمنا، وعند اختلاف وجهات النظر مع من نقابله، فنجد أنفسنا دون أن ندري ننسحب إلى عالم آخر لا يوجد فيه غيرنا، ولا يكون ذلك محببًا لنا، ولكنه اختيار أجبرنا عليه بعضُ الأشخاص في المجتمع.

وربما تكون الوحدة مفيدة لبعض الأشخاص، وبهلول اختار الوحدة لينعزل عن عالم يظن أنه غير عالمه؛ ليعيش ذكرياته وحده مع طيفه العزيز لقلبه.

***

وقفت على الجسر، ورأيت النخلة من بعيد؛ لأن الجسر يرتفع عن الأرض حوالي خمسة أمتار، وزراعات القصب حوله.

والنخلة تبدو قريبة، لكنها في وسط القصب بعيدًا، فعزمت على الذهاب إليها. نزلت في القصب، والقصب مثل الغابات،

وأخـذت أفـرق في القصـب، ومشـيت عـلى مـصرف صغـير مـن مصـارف الميـاه إلى أن وصلـت لنخلـة بهلول.

ورأيـت هـذه النخلة التي يأوي إليها شـخص لـه قصة عظيمة في الإخـلاص، وصـدق الحب لمن يحب.

وأنـا واقـف بجـوار النخلة أخـذني فضـولي أن أتسـلق النخلة؛ لأعـرف مـا عليها وهي مرتفعـة قليلًا عن القصب ليسـت بالطويلة.

فتسـلقت النخلـة، فوجـدت أعلاهـا ممهـد ومريـح ومجهـز للنـوم، ووجـدت قشًّـا وبعـض الخيـش، ووجـدت أن بهلـول قـد نـزع منهـا السـلاع[1]، وفـرش الجريـد وبسـطه، والنخلـة عريضـة مـن فـوق – سـبحان الله – كأن الله جعلهـا سريرًا لبهلول، سـبحان الوهـاب العظيـم.

كذلـك وجـدت قُلَّـة مـاء، وبعـض كـسر الخبـز مـن البتَّـاو، وبقايـا قـماش قديـم، ووجـدت حجـلًا وخلخـالًا، خمَّنـت ربـما تكـون هذه الأشـياء لـدلال، وهـذه بقايا مـن ذكرياتها لتذكـره بها.

وأنـا فوق النخلـة وجهت نظـري إلى الجسر، فرأيـت كل شيء عليـه، حتى بهلـول والأولاد وهم جالسـون تحـت النبقة.

وكذلـك اكتشـفت أن «بهلـول» مـن فـوق النخلـة يـرى دار

(1) أي: الشوك.

دلال من على الجسر، وهذه الدار قديمة ومهجورة، ولكنه يحب أن ينظر إليها؛ لأنها كانت مسكن حبيبته.

فقررت النزول بسرعة ربما يلمحني بهلول أو أي أحد.

وعندما وصلت لجدار النخلة سمعتُ صوتًا قادمًا إليَّ من مصرف الماء القريب من نخلة بهلول، ولما اقترب مني ميَّزته، إنه صوت سيدتين، ومعهما بنات صغار، ومعهما جوالات مليئة بالحشائش، حاولت أن أختبئ في القصب حتى لا يروني؛ فاختبأت، وعندما وصلن بجوار النخلة، وأنا أراهن وهن لا يرونني، وقفت السيدتان وأخذتا تتحدثان عن بهلول، وأنا أسمع.

قالت إحداهن:

- «دي نخلة بهلول اللي حب دلال».

ردت عليها الأخرى:

- «أيوا ياختي».

قالت وهي تتذكر دلال:

- «تصدقي تستاهل الجنان عليها، كانت حلوة وجميلة».

ردت الأخرى:

- «صحيح، كانت أجملنا بصراحة، وكانت بتحب بهلول،

وكانت مفتخرة بيه، فاكرة لما كانت تغيظنا بيه لما كنا نروح الحشيش تحت الجسر، وتتكلم عنه وعن رقته، وعن شهامته ورجولته، وإنه بيشتري ليها الحلو كله من السوق، وتقول: جابلي وجابلي عمران أبو جاد الكريم من فرشوط وهو راجع».

قالت إحداهن تترحم على دلال:

- «الله يرحمها، قتلها رسلان المجرم، وحرم بهلول منها، ربنا يحرقه في نار جهنم».

يقلن هذا الكلام وهن لا يروننى، وتحدثن عن حب دلال لبهلول، وعن جمال دلال ورقتها. وقفن لحظة ثم غادرن المكان حتى خرجن إلى الجسر، وعندما اختفين حاولت الخروج، لكن سمعت صوتًا قادمًا نحوي فاختبأت مرة ثانية، وعندما اقترب كان صاحب القصب يمر على المصرف ليتأكد من وصول الماء للمصرف، ووقف عند المصرف ونظر ونادى:

- يا بهلول.

فلم يجبه أحد، وعندما لم يسمع الرد عرف أن «بهلول» ليس موجودًا، فرجع متوجهًا للجسر، فخرجتُ من مخبئي، وحمدت الله أن كلاب بهلول معه على الجسر، ولو كانت الكلاب هنا لمزقتني وعضتني، ولنبحت عليَّ وفضحتني، فخرجت مسرعًا

متوجهًا للجسر حتى أذهب للأولاد وبهلول في المكان الذي تركتهم فيه.

وجدتهم يجلسون كما كانوا، ولكنهم في هذه الحالة يضحكون ويقهقهون بصوت عالٍ، ووجدت من الحضور الجدد حسن أبو راشد وعدلي أبو محمد، وكانت أعمارهم أكبر منا بكثير، وهذان الشخصان يحبهما بهلول جدًّا، ويمزح معهما كثيرًا، ويضاحكهم ويضاحكونه كثيرًا، وعندما اقتربت منهم وجلستُ بجوارهم، سألني بهلول بصوت عالٍ:

- «اتأخرت ليه كده؟»

حاولت أن أفهمه أني كنت في مشوار قريب حتى سكت، سألني سؤالًا آخر، وقال لي:

- هو أنت في الأزهر؟

قلت مبتسمًا:

- نعم.

قال لي:

- طيب ممكن تقرأ لنا سورة قرآن؟

تعجبت من سؤاله، لكن الجميع قالوا لي: اقرأ، وقال

جميعهم بصوت واحد:

- «ماشي يا بهلول سيقرأ».

وبدأت في القراءة من آخر سورة البقرة، وبهلول يبتسم، وقد ظهرت عليه علامات السعادة، وهو يقول: الله الله.

إلى أن انتهيت من القراءة، وبدت عليه ملامح السكينة والوقار، وكان سعيدًا مبتسمًا، هادئ الطبع، رزين العقل.

في النهاية قال لي:

- الله عليك.

عندما قال لي ذلك وهو سعيد شعرت نحوه بالأمن والأمان أكثر، وشعرت أنه بدأ يعود له عقله، ويعي ما يقول، ثم بعد ذلك أخذ عدلي يضاحكه، ويقول له:

- «خالك عملك إيه يا بهلول؟»

وعندما سمع ذلك أخذ يضحك بصوت عالٍ جدًّا، ويقع على الأرض من شدة الضحك، ويقول لنا:

- «عارفين عملي إيه؟ ضربني بالطبنجة سبع طلقات في رقبتي ما قطعهاش - وهو يضحك - عارفين أنا ليا عنده رقبة».

ونحن نضحك على كلامه، ونقهقه بصوت عالٍ، وبينما

نحـن نضحـك ونمزح مـع بهلول، مـر خـالي إبراهيـم، وكان أذان المغـرب قـد اقترب.

وعندمـا رآه بهلـول انتصـب واقفًـا، وأخذ يجري نحـوه، وهو يقول:

- «عمي الحاج، إزيك، كيفك؟»

ووقفنـا نحـن جميعًـا احترامًـا لخـالي ولمكانتـه وسـنه الكبـيرة، وهـذا مـن عاداتنـا، الكبـير يقـف الجميـعُ تقديـرًا له.

وبعـد أن سـلَّم بهلـول عـلى خـالي إبراهيـم، وأراد أن يرجـع لمكانـه، وجـه خـالي لنـا كلامًـا، وقـال محـذرًا:

- «اوعوا تضايقوا بهلول يا ولاد؟»

فرددنا جميعًا بصوت واحد:

- «حاضر يا خال».

فذهـب خـالي، ثـم بعد ذلـك تفرقنـا؛ لأن الشـمس بـدأت في الغـروب، ولا يوجـد في بلدتنـا كهربـاء حتـى نذهـب لبيوتنـا قبل حلـول الظـلام، ذهبنـا وتركنا «بهلـول» لحالـه يعيش مـع ذكرياته.

6 - فرح

أحيانًا: يرقص الإنسان ليفرغ طاقة عنده، أو ليستريح من هم يلازمه أو حزن يتملك قلبه.

***

ذهب بهلول للفرح؛ لأن من عادته مشاركة الناس أفراحهم وأحزانهم.

في الأفراح يحب أن يرقص ويلعب العصا[1] التحطيب، ويذهب من بعد العصر؛ لأن الزمرتية[2] يأتون بعد العصر ليلعب الناس العصا، وكان ذلك اليوم فرح عبد المولى أبو صالح، والزمرتية يأتون من بلد قبلي بلدتنا تسمى «زليتم»، الناس يأتون بهم في الأفراح أو في مولد الوازيري، وكان بهلول في المولد يرقص وينام هناك في قرية بهجورة.

وفي الليل يُحيي الفرح عبد الستار الزمرتي، ويرقص عليه

(1) السوه، أو: التحطيب.

(2) عازفو المزمار البلدي.

بهلـول، ويقـول له:

- «غنيلي أغنية: روح يا حمادة روح، يا مجرس يا مفضوح».

ويرقـص بهلول عليها بنشـوة وتمعـن، وكان ضحـوكًا ذا نفس مرحـة، وكان النـاس يحبونـه لروحـه المرحـة وضحكاتـه ونكاتـه، وعبـد السـتار يغنـي أغنية: «شـيل العجنية شـيل.

شيل العجنية شيل

اللي معاه واحده تخينة

يوديها للجزارين

شيل العجنية شيل

اللي معاه واحده طويلة

يوديها للنجارين

شيل العجنية شيل»

والنـاس يضحكـون، وبهلـول يرقـص ويتمايل حتـى الصباح، وكان بهلـول معروفًـا بـين النـاس بأنـه يحـب الأفـراح ليرقـص ويُضحـك النـاس والشـباب.

وكان يـوم الحنَّـة هـو الـذي يخلـف للعريـس، يأتون لـه بطبق كبـير بعـد أن يُحنِّـي العريـس بالحنَّـاء يخلـف عـلى العريـس، يعني:

يجمع النقطة، ويقول: فلان أبو فلان ينقط بالفضة خلافة خير، وفي النهاية يأخذ ربع الفلوس.

وفي ليلة عرس عبد المولي تعشى بهلول مع الناس، ولكنه أخذ قطعة لحم يأكل منها وسط الناس وهو يضحك، ويمازح الناس، ويقول ضاحكًا:

- «روحوا خدوا لحم لتأكلوا».

والناس في الفرح يمزحون معه، وكلما تحرك في مكان تحركنا خلفه لنضحك، وهو سعيد بنا وبوجودنا معه، ولما اقترب موعد دخول العريس عبد المولى على زوجته ذهب معنا في الزفة، يغني مع الشباب، ويقول:

- «عريسنا دخل دخل... بين الجنايين والنخل».

ويقول ضاحكًا بصوت مرتفع:

- «يللا يا عبد المولى ورينا همتك يا بطل».

قال له شحات أبو رمضان وهو يمزح:

- «بلاش يا بهلول لا تخض الراجل، خليه يعرف شغله!!»

وأخذ الجمع في الضحك؛ فرد بهلول وهو يضحك:

- «إزاي يا شحات، لازم يعرف طريقه كويس».

- ظللنا نضحك بقوة من كلام بهلول، ورده الفكاهي.

إلى أن وصل العريس لبيته؛ فتركه الشباب ليدخل حجرته على عروسه.

وبهلول يصفق ويقول لعبد المولى:

- «أشوفك بعد ساعة يا عبد المولى، أوعاك تتأخر مش همشي لحد ما ترجع».

والنساء يزغردن لدخول العريس على عروسه، فعاد بهلول ليجلس مع الناس، وهو جالس معهم على الدكك يلقي عليهم النكات، فسأله رجل:

- «يا بهلول، فين عبد المولى دلوك؟»

فرد بهلول وهو يضحك، وقال:

- في الحرب.

عندما قال ذلك ضحك الجميع، فقال بهلول:

- «ربنا يرجعه بالسلامة، ويرجع لينا مش ناقص رجل ولا دراع».

فقال الناس وهم يضحكون:

- «ليه يا بهلول هو راح إسرائيل يحارب؟»

فقال بهلول وهو يضحك بصوت مرتفع:

- «أصعب يا بوي أصعب بكتير».

وكان السامر عامرًا بالناس، وقد تجمع الناس حول بهلول حتى نصف الليل إلى أن خرج عبد المولى يسلم على الناس، ويُحيِّي الناس بالسجائر، وعندما رآه بهلول جري نحوه، وأخذ يقبله وحضنه حضنًا كاد يمزق أضلاعه، وهو يقول:

- «رجعت سليم يا بطل».

والناس يضحكون بشدة على أفعال بهلول وحركاته، وأخذ بهلول يسأل عبد المولى:

- «إيه أخبارك؟»

عبد المولى يرد مبتسمًا:

- «كويس يا بهلول، الحمد الله».

ولقد سأل بهلول عبد المولى عدة أسئلة، لكن عبد المولى لم يجب حياءً واكتفى بالابتسامة فقط، ومكث عبد المولى حوالي نصف ساعة مع الناس، ثم ذهب لعروسه، وفي آخر الليل تفرق الناس، وذهب بهلول لنخلته لينام.

7 - الخطَّاطة

الحظ: هوأمر يحدث مع الشخص، ويكون خارجًا عن سيطرته أو نيَّته، أوالأمرالذي كان يعمل عليه، وتختلف وجهات النظر بالنسبة للحظ؛ فهناك من يعتبره أمرًا متصلًا بالعشوائية، وهناك من يعتبره مرتبطًا بالتفسيرات المتعلقة بالإيمان، والحظ يرجع لقدرة الله تعالى وهو الرازق المانع الضار النافع، أما محاولات العرافين وغيرهم فهي مجرد تخمينات، وليست حقائق ثابتة.

***

من العادات أن تذهب ضاربة الودع[1] إلى بيت العريس في الصباحية (تشوف ريحته) تقرأ له الطالع، وتخط له الحظ بالحصى ونوى التمر.

فذهبت الخطاطة لبيت عبد المولى العريس الجديد؛ لتعرف له الحظ، وتقرأ له الطالع.

(1) الخطاطة، ويطلق عليها: العرافة.

وعندما دخلت نادت:

- «عليكم سلام الله ياساكنين البيت ويا حراس».

مـن عادتها عندمـا تدخل عند أحـد تقول هذه الكلـمات؛ لتهيأ الجـو، وجلسـت في فناء البيـت المبنـي بالطين، وجلسـت بجوارها أم عبد المـولى العريس

الخطاطة تسأل مبتسمة:

- «فين العريس يا خيتي؟»

قالت أم عبد المولى:

- «هو لسه في الأوضة مصحيش لحد دلوك».

تنظر لها الخطاطة مستغربة:

- «لحـد دلـوك يـا حاجـة، دا الشـمس عليت والنـاس طلعت عـلى معايشـها، ولـدك قاعـد لدلوك يـا خيتي».

أم عبد المولى نظرت لها باستغراب وقالت:

- «دا عريـس، ينـام براحتـه، وميتـا مـا يطلـع يطلـع، لا هـو رايـح الـزرع ولا معـاه أي مصلحـة.

شـوفي لي ريحتـي أنـا الأول قبـل العريـس عـلى مـا يكـون صحـي».

وبدأت الخطاطة تُخرج النوى[1] لتخط لأم عبد المولى، وأمسكت بخمس نوايات وفركتها بيدها، وألقتها على الأرض، وهي تقول:

- «حظك زين يا أم عبد المولى، طالعك جميل وزين».

وتحاول أن تجذب أم عبد المولى لتنظر في النوى، وهي تقول:

- «شوفي شوفي، أهو النوايا دي المتقدمة دا جوزك وانتو حواليه، والخير كله معاكم وعنديكم هنيالكم، شوفي يا أم عبد المولى النوايا دي البعيدة دا عدو يا خيتي بس ربنا نجاكم منه، حظكم زين وعال لأنك ست طيبة وجوزك زين».

ترتسم السعادة والسرور على وجه أم عبد المولى ابتهاجا بما تقول الخطاطة، ثم تسأل الخطاطة:

- «ممكن يا خيتي تشوفي لي ريحة بتي رضية».

الخطاطة:

- «طيب ممكن تجبيلي حاجة من ريحتها، جلبية، منديل، أي حاجة».

قامت أم عبد المولى ودخلت حجرة من الحجرات، وجاءت

(1) نوى التمر.

بمنديل لابنتها رضية، وأعطته للخطاطة.

فأخذت الخطاطة المنديل ووضعته في القفة التي معها، وقالت لأم عبد المولى:

- «دلوك هشفلك ريحة بتك».

وبعد قليل أخرجت الخطاطة المنديل، وأخذت تتمتم بكلمات غير مفهومة، ثم قالت مرة واحدة:

- «حظك زين يا رضية، حظك زين يا رضية».

عندما قالت هذه الكلمات تبسمت أم عبد المولى ابتسامة عريضة، وسعدت وقالت:

- «خير خير».

قالت لها الخطاطة:

- «طلي الخير يا خيتي، بتك هيجيلها عريس قريب زين الرجال من عيلة زينة، وهيرفع رأسكم بين الخلق، وبتك هتكون سعيدة معاه».

سعدت أم عبد المولى كثيرًا، وقالت:

- «تصدقي لو حصل ليكي الحلاوة الكبيرة، وتيجي يوم الفرح وتتعشي وتاخدي اللي فيه النصيب».

ردت عليها الخطاطة:

- «بحق يا حاجة».

ردت أم عبد المولى مؤكدة:

- «أيوا أمال إيه، بس خليه يحصل كدا وشوفي أنا أعمل إيه».

وهما يتحدثان خرج عبد المولى من حجرته وما زال النوم في عينيه، يبدو عليه الإرهاق والتعب، وعندما رأته أمه زغردت، وقامت الخطاطة تستقبله وتهتف في وجهه:

- «صباحية زينة يا زين الرجالة، أمال فين عروستك؟»

رد عليها عبد المولى وقال:

- «جايه دلوك».

بعد لحظات خرجت العروس من حجرتها؛ فاستقبلتها الخطاطة وقبلتها، وقالت:

- «عروسة زينة ومليحة والرب حارسها، هنيا لك يا عريس».

ثم قالت:

- «تعالوا قربوا عندي عشان أشوف ليكم ريحتكم عشان الحسد والعين الوحشة».

فجلس عبد المولى وعروسه بجوار الخطاطة، ووضعت الخطاطة رأسها في القفة، وأخذت تتمتم بكلمات غير مفهومة، وفجأة أخرجت رأسها، وقالت:

- «محروسين من العين ومستقبلكم سعيد وزين».

واقتربت من عبد المولى، وأسرت إليه بسرٍّ وقالت:

- «عروستك شهر وهتحمل بولد».

فنظر لها عبد المولى نظرة سعادة، وقال:

- «لو حصل ليكي الحلاوة».

فقالت مؤكدة:

- «هيحصل يا زين».

وقالت للعروس:

- «أبشري بالخير بعد شهر يا عروسة خير كبير».

فتبسمت العروس، ونظرت للأرض حياءً، قالت الخطاطة:

- «بص ياعريس أنا عملتلكم تحويطة من الحسد والعين الوحشة».

قال لها عبد المولى:

- «زين عايزه كام فلوس؟»

قالت له:

- «تلات قروش».

فنظر لها عبد المولى مستغربًا:

- «كتير قوي».

قالت:

- «كيف دا أنا شفت لكم الطالع وريحتكم، وعملت تحويطة عشان الحسد».

فقال عبد المولى:

- «لو كان برضه، تلات قروش كتير أنا هديكي قرشين بس، ولما يحصل الخير هديكي تاني».

ردت الخطاطة وهي تحاول استرضاء عبد المولى وقالت:

- «اللي تشوفوه يا زين الرجال».

وأخذت منه ثلاثة القروش، وأخذت من أم عبد المولى قرشين، وثلاث بتَّاوات ورغيفًا شمسيًّا، وخرجت وهي تقول:

- «أفوتكم بالخير والعافية يا كرمه هجيلكم تاني، سلام الله عليكم».

وخرجت من بيت العريس متوجهة للجسر لتذهب لقريتها

فرشـوط، وعندمـا وصلت الجـسر وجدتنـا نجلس تحـت النبقة أنا وشـلة الأولاد وبهلول معنا.

عندما رآها بهلول صاح وقال:

- «الخطاطة أهي».

ونادى عليها:

- «تعالي تعالي شوفيلي بختي وحظي الشوم».

فاقتربـت منـا، ووضعـت القفـة التـي عـلى رأسـها وجلسـت بجوارنـا، فقـال لهـا بهلـول:

- «عايزك تشوفيلي ريحتي».

قالت له:

- «ماشي بس ارمي بياضك عشان أستفتح بيك».

عندما قالت ذلك ضحكنا جميعًا، وقال بهلول:

- «بياض بياض إيه يا ولية، أنا مش معايا».

فقالت له:

- «حتى لو كحروتة تنفع».

فقال بهلول ضاحكًا:

- «كحروتة إيه؟ لا معايا كحروت (بيض) ولا فلوس».

فاستغربت الخطاطة وقالت:

- «لازم عشان أستفتح بيك وأفتح الطالع».

فقال رشاد أبو عليان:

- «أنا هستفتح الطالع، وهديكي قرش وتشوفيلي ريحتي».

قالت الخطاطة:

- «ماشي اسمك إيه؟»

قال:

- رشاد أبو عليان.

قالت:

- «اسمع يا صبي يا زين حظك مليح، ومستقبلك طالع، هتتجوز عروسة بنت ناس عليها العين، ولكن أنت هتفوز بيها يا زين، وأنت شاب مليح وهتنجح في المدرسة وهتبقى ناظر كبير، وهيكون عليك القول».

فضحكنا جميعًا، وأخذنا نهنئ «رشاد»:

- «يللا يا عم هتبقى ناظر كبير في المستقبل».

فتبسم رشاد وأعطاها القرش، وقال لها:

- «شوفي ريحة بهلول».

فنظرت لبهلول نظرة استغراب وتعجب، وقالت له:

- «مـا لـك كـدا كأنـك جـاي مـن سـفر بيعـد وهمـوم الدنيـا عليـك؟!»

فرد بهلول وهو يتنهد وقال:

- «أيـوا جـاي مـن سـفر بعيـد، وهمـوم الدنيـا تقيلـة، ومـش راضيـة تنـزل مـن عـلى كتفـي».

وتنهد أكثر وقال:

- «آه من هموم الزمن آه».

فقالت له الخطاطة:

- «هون عليك، هتتعدل هشفلك ريحتك وهترتاح».

فقال لها بهلول وهو يبتسم:

- «ممكن تشوفيلي ريحة دلال؟»

قالت بترحاب:

- «قوي قوي، لكن مين دلال دي؟»

فقـال بهلـول وملامـح السـعادة تبـدو عـلى وجهه عندمـا ذكر دلال:

- «دي حبيبة القلب».

فقالت الخطاطة:

- «طيب استني هشفهالك».

ووضعت رأسها داخل القفة التي معها، وأخذت تتمتم بكلمات غير مفهومة، وقالت فجأة:

- «اسمع يا زين، حبيبتك مليحة، وفي مكان زين ومستنياك عشان تتزوجها، وهي بتحبك وبتحب سيرتك، وروح كلم ناسها النهرده، وهي مستنياك وبتحبك موت، أهو قالي الطالع: رحلها دلوك».

فاستغربنا جميعًا من كلامها، فهب بهلول واقفًا وانتفض، وبانت عروق رقبته من شدة الغضب، وركل قفتها برجله بقوة، وقال بصوت عالٍ:

- «مستنياني إيه يا ولية يا كدابة؟ دا ماتت من خمسة وعشرين سنة، وقتلها رسلان أبو محمدين، يا ولية يا كدابة قومي من هنا».

تفاجأت الخطاطة، وأخذت تجمع حاجاتها لتفر وتذهب، وظل بهلول يشتم ويحاول الهجوم عليها؛ فأمسكنا به لنبعده عن الخطاطة؛ لأنه همَّ أن يضربها، وأخذ يقول بغضب:

- «ولية كدابة بتضحك على الناس».

وهربت الخطاطة وأخذت تجري على الجسر، ورفع بهلول صوته لتسمعه مهددًا وقال:

- «لو شفتك في البلد دي تاني هقطع رقبتك يا كدابة».

وهي تجري على الجسر وتنظر خلفها وهي قلقة خائفة، ربما يتبعها بهلول، واختفت عن الأنظار.

هدأ بهلول، وأخذنا نضحك على الموقف الذي حدث، ثم تفرقنا كلٌّ لحاله، وتركنا «بهلول» وحده تحت النبقة وهو يضرب كفًّا على كف مستغربًا من كلام الخطاطة، ويقول:

- «تقلي: روح كلم ناسها النهردة الولية الكدابة».

8 - شجاعة ورجولة

الشـجاعة والرجولـة صفتـان عظيمتـان، وهما صفتـان يكمل بعضهـما بعضًا.

والشـجاع يمتلـك صفـة الرجولـة، كـما يكون صاحـب قلب قـوي، ورأي سـديد أحيانًـا في بعـض المواقف.

والنـاس يفتخـرون بالإنسـان صاحـب الشـجاعة؛ لأن الجبن صفـة ذميمـة خصوصًـا في الرجال.

***

بهلـول عـلى الرغم من أنـه كان يفقـد عقلـه أحيانًـا، لكنه كان صاحـب قلـب قـوي، لا يخاف أحـدًا، ولا يهـاب شـيئًا، وكانت له مواقـف عدة مـع بعـض الناس.

ونومـه بالليـل في وسـط القصب عـلى النخلة خـير دليل على شـجاعته ورجولتـه، وعـدم خوفـه مـن أي شيء، وأنـه صاحـب قلـب قـوي لا يخـاف، ولـو كان يخـاف مـا بقـي ليلـة واحـدة في

ذلك المكان.

في ذات صباح استيقظت على صوت أمي وأخوتي تقولان: «بهلول مسك الديبة»[1]، فتركت الإفطار وخرجت أجري متوجهًا للبربخ[2]؛ لأن الناس يجلسون هناك للتَّشمُّس بشمس الشتاء في الصباح، وهناك مقر الأخبار، وقد سمعت الصوت قادمًا من ناحية البربخ.

وعندما وصلت وجدت جمعًا غفيرًا من البشر وهم في حلقة، وبهلول في الوسط، ممسك بالديبة، وقد لفَّها بشال له، وربطها بحبل، وكتفها بإحكام قوي؛ حتى لا تعض أحدًا، والناس يتفرجون على هذه الديبة التي شيبتهم، وأكلت بعض أغنامهم وطيورهم، وأخذوا يمدحون في بهلول، ويفتخرون به ويقولون: يا بطل، يا بطل.

بعض أهل البلدة يقولون: إن «بهلول» ممسوس[3].

سأله خالي إبراهيم:

- «كيف مسكتها يا بهلول؟»

(1) أنثى الذئب.

(2) كوبري صغير.

(3) يعني: لديه قوة جبارة.

فرد بهلول، وهو يفتخر بشجاعته ورجولته:

- «والله يا عم الحاج أنا لقيتها في دار دلال، أنا كنت معدي في الصبح بدري، وقعدت شوية على الجسر جنب دار دلال سمعت صوت غريب جوه، دخلت أشوف الصوت دا، وكان معايا الشمروخ[1] فلقيت الديبة دي، وأول ما قربت منها هبت في وجهي تلقيتها بالشمروخ وضربتها على دماغها، وقعت على الأرض دايخة، قمت كتفتها وربطت خشمها[2]، ولما فاقت سحبتها على هنا».

لقد كثر تجمع الناس على البربخ ليشاهدوا الديبة حتى التلاميذ لم يذهبوا إلى المدرسة ذلك اليوم، وكذلك بعض الموظفين لم يذهبوا لأعمالهم، الكل على البربخ سعداء بما صاد بهلول.

حتى بعض النساء العجائز جئن ليشاهدن هذه الديبة التي دوختهن، وأكلت طيورهن.

خالتي أم حربي، وخالتي فهيمة أم إبراهيم العريض، وخالتي حميدة أم رضوان، أخذن يتحدثن مع بهلول،

(1) عصا ضخمة.

(2) فمها.

ويمدحـن فيـه.

قالت خالتي أم حربي:

- «والله جـدع يـا بهلـول، يعطيـك العافيـة يـا ولـدي، ريحتنا، كانـت تـأكل فروجـاتي[1]، ومـش بتخلينـي أنام».

وبعدما أنهت كلامها زغردت.

خالتي حميدة قالت بصوت عالٍ موجهة كلامها للناس:

- «أهي الرجالة ولا بلاش، قبر يلمكم شنبات ع الفاضي».

فردت عليها خالتي فهيمة:

- «خـلاص يا حميـدة خلصي فِـ الكلام، النـاس مش واحد، في نـاس قلوبهـا قويـة وناس قلوبهـا ضعيفة يـا أم رضوان»، فسـكتت خالتـي حميدة.

أحد الواقفين يسأل «بهلول»:

- «هتعمل فيها إيه يا بهلول؟»

قال:

- «أنـا هدبحها وأشـوي كبدها عـلى النار، وآكله عشـان أبقى

(1) دجاجاتي.

قوي زيها».

وفعلًا قام بهلول فذبحها، وشوى كبد الديبة على النار، وأكله، والناس ينظرون إليه، ثم تفرق الناس وليس لهم حديث إلا الديبة التي أمسك بها بهلول، كانت حديث الموسم.

ومن شجاعته ورجولته أنه كان يحرس الجسر من الناحية الغربية من اللصوص وقطاع الطرق.

وكان اللصوص يحسبون له ألف حساب، لا يستطيع أحدهم أن يقترب ناحية البلدة ليلًا من صوت بهلول؛ لأنه لا ينام الليل، وهو على النخلة يكشف الطريق بالليل والنهار.

وكان له صوت كالرعد، وكنا نسمعه من بيوتنا، يقول:

- أنا أبو زيد الهلالي، أنا خليفة الزناتي.

ويزعق بصوت عالٍ:

- «مين ع الجسر؟»

لدرجة أنه لو مر أحدٌ على الجسر في ساعة متأخرة من الليل، وقال بهلول: «مين هناك؟» يرد عليه من يمر ويقول: «أنا فلان»، فيقول له بهلول: «سلام عدي».

كانت البلدة تنام على صوته آمنة مطمئنة بالليل، لدرجة أنه

في ليلة من الليالي مرت دورية حكومية من الشرطة، فخرج لهم بهلول، وكان معهم أناس من البلد، وعندما رآهم بهلول صاح فيهم وزعق وقال لهم:

- «انتوا مين؟ وإيه اللي جيبكم دلوك في الليل من غير إذني، انتوا مش عارفين أنا هنا وحارس البلد وحارس دار دلال؟!»

فاستغرب ضابط المباحث، وهمَّ الجند بتعنيفه، فأشار ضابط المباحث أن يتركوه؛ لأنه لاحظ أنه غيري طبيعي.

فقال خالي إبراهيم للضابط:

- «معلش يا باشا دا راجل تعبان».

فبتسم الضابط وقال:

- «مفيش مشكلة يا حاج إبراهيم، واضح».

وأخذ خالي إبراهيم يحدثه عن بهلول ويقول:

- «تصدق سعادتك بنام على صوته، وإنه مسك ديبة من يومين، الديبة دي بتخرب بيوت ناس كتير».

فقال الضابط:

- «كويس أهو مونسكم».

فقال خالي إبراهيم:

- «أيوا مونسنا بصراحة».

فتحركت الدورية وذهبت، وبهلول بصوته العالي: «مين هناك؟»

وصوته كالرعد بالليل على الجسر، بدون خوف بقي وحده حتى الصباح وهو يقول: «مين هناك؟ أنا أبو زيد الهلالي سلامة، أنا خليفة الزناتي، أنا سبع الليل» حتى بدت بشائر الصباح وهو على الجسر.

8 - الونسة

مهما فرقنا الموت والأيام والسنون ستبقى حبيبي دائمًا أبدًا، وعندما يذكِّروننني بك، ليس هذا لأني قد نسيتك كلا، بل أنت تسكن قلبي، بل تجري في عروقي ودمي، وما جلستُ مجلسًا إلا وأنت في خيالي، وأذكر اسمك في كلامي وحلو حديثي.

***

في عام 1977 كان عمري ثلاثة عشر عامًا، وكنا نتونس[1] عند بيت محمد أبو أحمد مفرح وسيد أبو مفرح، وكان جلوسنا أمام التلفاز أبيض وأسود، ولم يكن في بلدتنا الصغيرة كهرباء ولا طريق ممهد لدخول السيارات، وكان محمد أبو أحمد يشغل التلفاز على البطارية، يشحنها من قرية بهجورة من عند (هنفر مقلدوس).

ويأتي المساء، ويتجمع الناس حول التلفاز على الترعة أمام بيت محمد أبو أحمد، ولا يوجد أحد عنده تلفاز إلا هذا الرجل،

(1) نسهر ليلاً.

لذلك كان بعض الناس يسمونه الشيطان؛ لأنهم لم يشاهدوه قبل ذلك.

وكنت أنا مجنونًا بهذا الجهاز العجيب، وكنا نتجمع هناك راشد أبو رشيد وعبد الحميد أبو سالم والعديد ممن هم في سني، ومن هم أكبر مني.

وكنا نسمع أخبار الساعة التاسعة بصوت أحمد سمير وحلمي البلك وغيرهم من رواد التليفزيون، وكذلك كان الناس يتجمعون لمشاهدة برنامج العلم والإيمان للمفكر العظيم د. مصطفى محمود؛ الذي أبهرنا بعلمه، وكان الناس يتلهفون لحضور هذا البرنامج، وكانوا أناسًا بسطاء لم يذهبوا للمدارس، ولم يدرسوا في جامعات، ولكنهم يفهمون كلام الدكتور مصطفى محمود، ويعون ما يقول.

وكان سيد أبو سالم أبو مفرح لديه دومينو يلعب بها الكبار، ويتجمع حولها محمد أبو معوض والحمش أبو عبد الحميد وسالم أبو الحاج وعلي رشيد ويوسف أبو عبد الباقي، والكثير منهم حتى الصباح، وفي منتصف الليل من السهرة يأتي بهلول من على الجسر وشمروخه في يده، وعندما يصل وكلابه خلفه تنبح عليه كلاب الحي يقول الناس:

- بهلول وصل بكلابه.

قال يوسف أبو عبد الباقي:

- «لـو بهلـول يخـلي كلابـه هنـاك ويجـي لوحـده أحسـن مـن الدوشـة دي».

رد عليه سالم أبو الحاج:

- «قُله لما ييجي يا يوسف».

قال يوسف مبتسمًا:

- «لا يا بوي لا أقله ولا يقلي».

قال له سيد أبو سالم أبو مفرح بصوت عالٍ:

- «طيب اسكت».

قال يوسف:

- سكت.

إلى أن وصـل بهلـول، ومـن عادتـه عندمـا يصـل يـضرب بشـمروخه الأرض بقـوة، ويقـول بصـوت عـالٍ:

- «أمسيته (مساؤكم) يا رجالة».

يرد الجميع:

- «مساك الله بالخير يا بهلول، كيفك؟»

ويجلس بهلول ويسأل سؤاله المعتاد:

- «مين غالب ومين مغلوب؟»

فيرد عليه يوسف أبو عبد الباقي:

- «لا غالب ولا مغلوب يا بهلول بنلعب بود ومحبة».

فيضحك الجميع، ويبتسم بهلول، ويتفرج على من يلعبون الدومينو، يقول:

- «بهلول موجه كلامه لمحمد أبو أحمد، هات فريد شوقي يا محمد».

يقول له محمد أبو أحمد:

- «السهرة اليوم فيلم فريد الأطرش، يوم الخميس فيلم فريد شوقي».

وكان يجلس معنا عبد الحميد أبو سالم، وعبد الحميد له ضحكات وقفشات ونكات مع بهلول، فأحب عبد الحميد أن يضحك ويُضحك الجميع، فقال لبهلول:

- «يا بهلول، مين اللي ضربك بتسع طلقات في رقبتك؟!»

وعندما سمع بهلول هذا السؤال من عبد الحميد أخذ يتكلم بهستيرية، وتغير طبعه، وأخذ يشرح للناس كيف أطلق

عليه خاله تسع طلقات بالطبنجة ولم يقطع رقبته، هو يقول والجميع يضحكون.

ونحن جلوس غنت أم كلثوم في التلفاز أغنية: كلموني تاني عنك فكروني، وعندما سمعها بهلول تغير حاله، وأخذ يغني معها وهو يبكي ويتصبب عرقًا، وكان الجو حارًّا بالليل، ويقول معها: كلموني تاني عنك، بصوته: كلموني تاني عنك يا دلال فكروني.

كلنا لزمنا الصمت، لم يتكلم أحد ونحن ننظر إليه إلى أن انتهت أغنية أم كلثوم، فانتصب بهلول واقفًا، وتوجه ناحية الجسر وهو يغني: كلموني تاني عنك يا دلال، وظل يغني طوال الليل ونحن نسمع صوته من بيوتنا بعدما انتهت الونسة الساعة الثانية والنصف ليلًا.

وعندما استيقظتُ في الصباح سمعت أبي يقول:

- «صوت بهلول كان عالي الليلة دي ليه كدا؟ وبيغني ومنسجم مع أم كلثوم».

وكان من عادة أبي أن ينام أول الليل ويستيقظ الساعة الثانية، فسمع «بهلول» وهو يغني مع أم كلثوم؛ لأن بيتنا قريب من الجسر، فحكيت له الحكاية أنه سمع أم كلثوم تغني في تلفاز محمد أبو أحمد، فقال لي غاضبًا:

- «محـدش هيفشـلك إلا السـهر دا والتليفزيـون دا، يا بني دي شـياطين بتجري في قـزاز وبيضحكوا عـلى الناس».

قلت له:

- «حاضر يا بوي مش هروح تاني».

وأخذ يدعو لي بالهداية:

- ربنا يهديك يا ابني.

9 - ظل السَّيسبان

إليكِ يا من أحبك القلب، يا من ملكت الفؤاد، يا من تكحلت العيون برؤيتك.

يا من عشت لأجله، يا من طيفك يلاحقني في كل لحظاتي، يا من أرى صورتك في كل مكان في أحلامي، في صحوي.

ما زلت أعيش على ذكراكِ، بل على لقائنا في الآخرة.

***

توجد شجرة سيسبان على ترعة صغيرة أسفل الجسر في الطريق الذي يمر منه بهلول وهو قادم من نخلته، هذه الشجرة ظلها كثيف وجيد، نجلس تحتها أنا وراشد أبو رشيد وعبد الحميد سالم وأحمد أبو رفاعي وأخيه حمدي أبو رفاعي وأحمد أبو سليمان وعبد الرحمن أبو عودة كل يوم بعد العصر نتسامر ونحكي، ونلعب بعض اللعب مثل السِّيجة، أو أي لعب آخر، وأحيانًا يمر بهلول، إما يجلس معنا أو يمضي لحال سبيله.

في ذلك اليوم مرَّ، ولكنه لم يمضِ، بل جلس معنا، وأخذ يتكلم، وسألنا:

- «انتوا بتتكلموا في إيه؟»

قلنا له:

- «إحنا بنلعب يا بهلول.

- طيب عايز ألعب معاكم السيجة».

رد عليه عبد الحميد، وكان عبد الحميد سالم يحب الضحك مع بهلول كثيرًا، وقال له:

- «مش هتعرف تلعب اللعبة دي صعبة عليك».

فقال له بهلول غاضبًا:

- «طيب تعال العب معاي وشوف أغلبك ولا لأ».

وأصبح الأمر تحديًا بين عبد الحميد سالم وبهلول، وبدأ لعب السيجة بين الاثنين، وبدأ التركيز من الطرفين، ونحن نشجع «بهلول»؛ لأننا نريد أن يهزم عبد الحميد؛ لأنه محترف في لعب السيجة، ولم يغلبه أحد.

وظلا ما يقرب من ساعة، وكان الغلبة لبهلول، ولكن في النهاية هزمه عبد الحميد سالم شر هزيمة، جعلنا نضحك على

بهلـول ونقـول له:

- «متقدرش على عبد الحميد يا بهلول».

ونحـن نضحـك ونقهقـه، سـأل راشـد «بهلـول» سـؤالًا غـيرَّ مسـار الـكلام، قـال لـه بتلقائية:

- يا بهلول، دلال كانت جميلة؟

فنظـر إلينـا بهلـول نظرة تملؤهـا الابتسـامة والأمـل والتفاؤل، وقال:

- أي جمال، وأي دلال؟!

«دا القمر كان بيغير من جمالها ومن دلالها، دلال وهي دلال».

ظـل يتكلـم وغاب عـن عالمنا كأنـه في الجنـة، ويصفهـا وصفًا دقيقًـا بما يحلـو ويختار.

قال لنا:

- «كنـت بجيـب مـن سـوق فرشـوط حـلاوة كرملـة لدلال، كانـت تدوب في خشـمها دوب، كانـت أجمل وأحلي من العسـلية، عسـل نحـل مصفي، كانت كغـزال عيقـان[1] بنفسـه، وبيخيل فيها أي لبـس وأي لـون، ضحكتهـا كانـت بتـشرح قلبـي، وتطفـي نار

(1) أي: فرحان.

مهجتي، وتكف دمعي، كنت لما بشوفها بنسى الدنيا، هي عمري وكل دنيتي، جميلة ورمشها ينسي كل هم، وعيونها تطبب المجروح، كنت لما بشوفها بترد الروح فيا، لو كنت جعان بشبع، ولو عطشان بروى، لو كنت ميت بحيا، تنسيني أهلي وناسي».

وأخذ يتنهد وهو يتكلم عن دلال، والدموع تنهمر من عيونه بغزارة، في هذه اللحظة لزمنا الصمت كأن على رءوسنا الطير، ونسمع كلامه بتأثر؛ لأنه يخرج من أعماق قلبه بصدق وإخلاص.

واستطرد يتكلم ويصف:

- «دلال لما كانت تمر على الجسر كان الجسر يهتز من جمالها بكرة[1] جميلة عيقانة، أو مهرة[2] متربية على الغالي، إديها متعطرة رباني، آه يا دلال فين جمالك وطيبة قلبك وودك وحسنك؟!»

قاطعه أحمد أبو سليمان شفقة عليه وسأله:

- «أقلك يا بهلول؟»

- نعم يا أحمد.

- «أنت أصيل؛ لأنك باقي على حب دلال حتى الآن».

بهلول والدموع ما زالت تترقرق في عينيه:

(1) أنثى الجمل الصغيرة.

(2) أنثى الحصان الصغيرة.

- «أيوا يا أحمد، أنا بقيت زي قيس اللي حب ليلى وسيرته على كل لسان».

راشد أبو رشيد يقول لبهلول يطمئنه:

- ربنا سيجمعك مع من تحب في الجنة يا بهلول، إن شاء الله ما دمت عففت وأخلصت لحبك، وكنت تريد العفاف، ولم تغضب الله تعالى.

كلنا قلنا بصوت واحد مسموع:

- آمين آمين يا رب العالمين.

وتفرق الجمع، وذهب بلهول لحال سبيله، وتوجه لدار دلال المهجورة حتى يتذكر، ويعيش الذكريات.

10 - يوم الخميس

ما الدنيا إلا سوق كبير: فيه الخاسر، وفيه الكاسب.

***

يوم الخميس هو عيد لنا؛ لأنه يوم سوق في قرية بهجورة، وفي ذلك اليوم نكون سعداء؛ لأننا سنذهب للسوق ونأكل طعمية، ونشتري حلاوة شعر البنات وحلاوة عسلية، وكنا نغيب من المدرسة يوم الخميس من أجل السوق.

قرية بهجورة تعداد سكانها حوالي خمسة وعشرين ألفًا بكفورها ونجوعها، والسوق يكون فيها يوم الخميس، ويكون مزدحمًا؛ لأن الناس يأتون له من كل البلاد، وفيه تباع الأغنام والخضار وكل شيء.

ويوم الخميس يطبخ الناس اللحم؛ وهو أمر ضروري، وعيب كبير إذا ذهبت لأحد البيوت يوم الخميس ولم تجد عندهم لحمًا، يعدون ذلك عيبًا وفضيحة في حقهم، لدرجة أن

بلدتنا الصغيرة قبل الغروب بساعة تشم فيها رائحة الحياق[1] عن بعد.

كنا صغارًا نلعب في السوق، ونذهب من بلدتنا على أقدامنا حوالي أربعة كيلومترات، ومنا من يركب حمارًا، لم تكن هناك مواصلات، بل الحمار هو الوسيلة الوحيدة، أو المشي على الأقدام.

وكان بهلول يذهب لسوق بهجورة من الفجرية، وعندما يصل يذهب لرشدي بائع النابت مباشرة؛ ليفطر عنده في الصباح.

ورشدي بائع النابت يفرش في السويقة البحرية يبيع النابت والفول المدمس وبليلة الذرة الشامية، وكان يضع القدر في الدِّمس[2]، وكانت القدر من الفخار.

وكان يذهب له بهلول، ويقول له:

- «يا عم رشدي هات بتعريفه فول نابت وتوصى؟»

يقول رشدي وكان يعرف «بهلول»:

- حاضر يا بهلول.

ويسأله رشدي:

- «يا بهلول معاك نص رغيف مقرقش[3] ولا أجبلك؟»

(1) التقلية.

(2) كومة نار يضع فيها قدر الفول.

(3) يعني: نصف رغيف شمسي محمص في النار.

إن كان مع بهلول يقول: معي، وإن لم يكن معه يأخذ من رشدي، ويعطي رشدي طبق فول النابت لبهلول، ويفت فيه نصف الرغيف، ويأكل حتى يشبع، ثم يتوجه للسويقة القبلية؛ ليمر على السوق، وفي طريقة يقابله الناس، ويسلمون عليه؛ لأنهم يعرفونه؛ لأن سيرته على كل لسان، وقصته مشهورة بين الناس، حتى النساء في السوق عندما يرونه يُشرن عليه بحياء وسرية، ويقلن:

- «بصي يا أم فلان، أهو بهلول صاحب دلال».

ويتغامزن عليه بسرية؛ حتى لا يراهن أحد.

بهلول يلف السوق كله، وفي وقت الظهر يذهب لحسن بائع الملوحة؛ ليتغدى عنده، وحسن يبيع الملوحة للناس في علب صفيح صغيرة، ويجلس الناس حوله يتغدون، ومنهم من يأتي ببتاوة، ومنهم من يأتي معه برغيف شمسيٍّ أو نصف رغيف، ويضع لهم الملوحة ويأكلون، وبهلول يعرفه كل الناس، وعندما يذهب لحسن يتكلم بصوت مرتفع:

- يا حسن.

- نعم يا بهلول؟

- «هات شوية ملوحة بيبي (صغيرة)، وحط شوية شطة عليهم؟»

- حاضر يا بهلول.

يـأكل بهلـول حتـى يشـبع ثـم ينـصرف، يتوجـه لأبـو رقـاب بيـاع البوظـة يـشرب عنـده كوبًـا مـن البوظـة، ثـم يتوجـه للجزار نـور الديـن، وكان نـور الدين يفـرش في السـويقة القبليـة، وعندما يـراه نـور الديـن يهـش في وجهـه ويبـش، ويرحـب به:

- أهلًا بهلول.

- أهلًا يا عم نور الدين.

يقول له بهلول:

- «عايز اللحمة بتاعت دلال يا عم نور الدين؟»

نور الدين يهز رأسه متبسمًا:

- حاضر يا بهلول.

يعطـي نـور الديـن لبهلـول ورقـة ملفوفـة بهـا حـوالي نصـف كيلـو لحـم، يقـول نـور الديـن للناس:

- «بهلـول دا غلبـان، وكانـت أم دلال زمـان تيجـي تاخـد اللحمـة منـى، فبهلول يغيـب وييجـي ياخدها ذكرى لـدلال، وأنا مـش عايز أكسـفه غلبـان ومسـكين».

يأخـذ بهلـول اللحـم ويتوجـه للبلـدة حتـى يصـل إلى نخلته،

يمشي على قدميه إلى أن يصل قرب العصر حافي القدمين، وعندما يصل يذهب لخالته أم حربي ليعطيها لفافة اللحم؛ حتى تطبخه ويتعشى به بهلول كالعادة.

أم حربي سيدة عجوز تحب «بهلول»، وأولادها يحبونه ويكرمونه ويخدمونه، وهي تحب أن تخدم «بهلول»، وتطبخ له وتعطيه خبزًا.

وصل بهلول البلدة قرب العصر، وطرق باب خالته أم حربي.

أم حربي من الداخل:

- «مين ع الباب؟»

- أنا يا خالة بهلول.

- تفضل يا ولدي.

قدم بهلول لها لفافة اللحم:

- «تفضلي يا خالة أم حربي، مستغربة ليه؟

- يا بهلول إحنا كدا طبخين يا ولدي، وأنا ببعتلك عشانك.

- معلهش يا خالة، دا من فضل ربنا أشكرك.

- طيب ابقي عند الغروب تعالى اتعشى مع حربي والأولاد في البيت».

يهز بهلول رأسه متبسمًا:

- حاضر يا خالة.

يخرج شاكرًا لها صنيعها، ويقول متمتمًا:

- «ست طيبة، ربنا يخليكي».

وعند الغروب يذهب بهلول لبيت خالته أم حربي ليتعشى معهم، وهو خارج يأخذ بعض الخبز معه، وعندما يصل يوزع بعض الخبز على الكلاب التي تحرسه بالليل، وتنام معه حول النخلة في وسط القصب، وهو يوزع الخبز يقول للكلاب:

- «كلوا البركة فيكم، حلال عليكم، أنتم أوفى من البني آدمين؛ لأنكم عمركم ما شكيتم، ولا تركتم المكان وأنا غايب».

ثم يتسلق النخلة وينام.

11 - الطَّلعة[1]

لحظـة الفِـراق مـن أصعـب اللَّحظـات التـي يمر بها الإنسـان في حياته.

حزن يغتالني

وهم يقتلني

وفراق حبيبي عذبني

آه، ما هذه الحياة التي

كلها آلام لا تنتهي

وجروح لا تلتئم

ودموع من العيون تجري

جرحت خدي أرقت مضجعي

وسلبت نومي آه يا قلبي

ما أحزنك، ما أوجعك،

(1) زيارة المقابر في فجر العيد.

على فراق الحبيب

هنا يرقد قلبي، هنا يرقد عمري،

في الثرى حبيبي

***

كانت من عادات بلدتنا يطلعون الطلعة في عيد الفطر وعيد الأضحى.

وكانت المقابر تبعد عن بلدتنا من الجهة الغربية حوالي عشرة كيلومترات، وكان أهل البلدة يُعدون العُدة للطلعة، يخبزون الكعك والمنون، ويذهب للمقابر النساء والأولاد والكبار.

ويكونون جماعات جماعات، ويركبون الحمير؛ لأنه لم تكن توجد سيارات، ولا طرق ممهدة، ومنهم من يمشي سيرًا على الأقدام، لزيارة المقابر التي تقع في منطقة حاجر الدهسة في الشيخ (وافي).

وفي صبيحة كل عيد يجلس بهلول قبل الفجر على الجسر من الناحية الغربية؛ حتى يذهب مع الناس، ويطلع معهم الطلعة ليزور قبر دلال حبيبته.

وفي صبيحة عيد الفطر كان حظه ونصيبه أن يذهب مع

مجموعة عدلي أبو محمد وحسن أبو راشد وبعض الشباب، فأخذوه معهم، وحاول عدلي أن يُركبه معه على حماره، فرفض بهلول وأصر أن يمشي على قدميه، سألوه: لماذا تصر على المشي ولم تركب معنا؟

قال لهم: لأني نذرت أن أمشي على قدمي حتى أ زور قبر دلال.

وهو يمشي على قدميه بين الراكبين يرفع صوته ويقول:

- «جايلك يا دلال».

وصوته في الصباح قبل شروق الشمس يدوي دويًّا، ويردد هذه العبارات التي تخرج من قلبه لحبيبته دلال:

«الحبيب يسكن في قلبي قبل القبر

أمرك يا رب نافذ أسألك الصبر

وحشني الغالي فراقه أحر من الجمر

كان مالي عليَّ الدنيا

وكانت ضحكته

زي نسيم الفجر

دلال طيفك مسبنيش لحظة

جايلك أزور قبرك

لطفِّي بقلبي الجمر»

يقول الجميع بصوت واحد:

- الله عليك يا متيم يا عاشق.

وعندما يسمع هو هذا التشجيع من الناس ينتشي ويبتهج.

حكى لنا من ذهب مع بهلول الطلعة قال:

- عندما نصل للمقابر يتركنا بهلول، ويذهب لقبر دلال، ويحضنه بشوق كأن دلال هي التي بين ذراعيه، ويخاطبها مخاطبة الحيِّ كأنها تجلس معه، ويتكلم معها وهو سعيد ويقول:

«أنا جبتلك كل اللي نفسك فيه يا دلال، جبتلك كرمله وحلاوة شعر البنات، وجبتلك دربس (ملبس)». ويخاطبها كأنها أمامه، وهو يتحدث يبتسم والسعادة ظاهرة على وجهه، ويقول: «يا دلال بتنامي كويس؟ بتتغطي من البرد؟ بتاكلي كويس؟»

ويسأل هذه الأسئلة لدلال كأنها تقف أمامه، ثم بعد ذلك يتغير حاله بين الفرح والحزن والبكاء، ويقول: يا دلال أنا ما زلت على العهد والذكريات، لا أنساكِ يا حبيبتي أبدًا، أنتِ مهجتي وفؤادي، لا أنام ولا يرتاح بالي يا دلال حتى أمر على دارك، كأنك تسكنين بها لأطمئن عليكِ يا غالية كل ليلة، وفي الصباح والمساء.

وهـو يبكي بجوار قـبر دلال يرش الماء ويترحـم عليها، ويضع سـعف النخيـل حولهـا، ويضـع بعـض ورق الصفصـاف الأخضر فـوق القـبر، وقـد حمل هـذه الأشـياء معـه، بـل جهزها مـن النهار ليأخذهـا معـه. وقـال لي الراوي الـذي كان معـه في الطلعة:

– عندمـا اسـتعددنا لـترك المقابـر، نريـد العـودة والنـزول من الجبـل ذهـب الجميـع لبهلـول عنـد قـبر دلال يحثـه عـلى الرحيل.

ويقول:

– عندمـا قلنـا لـه: «يلـلا يـا بهلـول خـلاص هنمـشي عشـان الشـمس هتطلـع؟»

رد علينا قائلًا: «ممكن نستنه شوية حتى أبقى مع دلال شوية؟»

يقول الراوي:

– فأشفقنا عليه، وقلنا: «خلاص ممكن شوية يا بهلول».

وتجمعنـا حوله وسـمعناه يخاطـب دلال ويودعهـا وهو يبكي، ويشـير ملوحًـا بيـده: «الـوداع يـا دلال، في جنـة الخلـد يـا حبيبـة القلـب، إلى الملتقـى في الآخـرة، ربنـا يجمعنـي بيكي».

يقول الراوي:

– كلماتـه أبكـت الكثـير مـن النـاس حتـى أم سـلمان كانت في

الطلعـة، وبكـت بـكاءً شـديدًا، تأثرت بكلماتـه، وقالـت: «كان الله في عونـك يـا ولدي».

ويقول الراوي:

– وعندمـا قررنا النـزول وبدأنا في التحـرك، كان بهلول يمشي بظهـره متقهقـرًا، وجهـه لقـبر دلال، وظهـره للطريق، وهـو يلوح بيـده ويقـول: الوداع يـا حبيبتي.

وعندمـا توجهنـا للبلـدة لم يتكلـم بهلـول في الطريـق، ولـزم الصمـت، ولم يقـل شـيئًا إلا الدمـوع تنهمـر مـن عينيـه بغـزارة إلى أن وصلنـا بيوتنـا، فوجدنا النـاس لم يخرجوا من صـلاة العيد، كان الإمـام يدعـو لينهـي صـلاة العيـد، ويخـرج النـاس ليعيدوا.

12 - العيد

الفرحة والسعادة تأتي على الناس في يوم جميل ورائع، هو العيد، فيه يلتقي الأقارب والأحباب، وفيه تتصافى القلوب وتطيب النفوس، يوم فرح وسعادة وسرور، وفيه يلتقي الأحبة والأصحاب، ويعيد كلٌّ على جاره وحبيبه، ليس يوم حزن وألم، بل يوم فرح وسرور.

***

ذهب بهلول للناس وهم خارجون من المسجد؛ ليعيد عليهم، فرحب به الجميع، وابتسموا في وجهه، وقالوا له:

- «لسه جاي من الطلعة يا بهلول؟»

رد مبتسمًا:

- «نعم لسه جاي».

قال له عسران أبو جاد:

- «حمدلله على السلامة زورت الميتين؟»

قال بهلول هازًّا رأسه:

- «أيوا ياعم عسران».

سأله عسران:

- «قريت الفاتحة لمراتي هناك؟»

رد عليه بهلول:

- «أنا قريت الفاتحة للجبانة كلها يا عم عسران».

وسلم الناس بعضهم على بعض في جو مليء بالفرحة والسرور، فترك بهلول الناس، وتوجه للشيخ رمضان ليسلم عليه، فرحب به الشيخ وقال:

- أهلًا بهلول حبيبي.

واحتضنه الشيخ حضنًا قويًّا ورحب:

- «إزيك يا بهلول، عامل إيه؟ كيفك يا راجل؟ أمال فينك محدش بيشوفك؟»

رد بهلول مبتسمًا سعيدًا:

- «أهو يا مولانا عايشين».

قال له الشيخ رمضان وهو يمسك بيده مرحِّبًا:

- «برضه عيزين نشوفك يا بهلول، ابقى تعال، أنا بكون

موجـود هنـا كل يـوم مـن المغرب للعشـاء».

وسأله الشيخ رمضان:

- «أمال كنت فين يا بهلول، مشفتكش في صلاة العيد؟»

رد عليه بهلول وما زالت الابتسامة على شفتيه وقال:

- «أصلي طلعت الطلعة؛ لأزور قبر دلال».

قال له الشيخ رمضان ناصحًا:

«يـا بهلـول زيـارة الموتى حـق علينـا، لكن لـو تخليها غـير يوم العيـد يكـون أحسـن، لأنـه النهـارده يـوم نعيـد عـلى بعـض فيـه ونـزور الأهل».

فرد عليه بهلول باحترام:

- حاضر يا مولانا إن شاء الله، سلام عليكم.

رد الشيخ:

- وعليكم السلام، مع السلامة يا بهلول.

وخـرج بهلـول مـع النـاس؛ ليذهبـوا للبيـوت ليعيـدوا عـلى النـاس، فقـال بهلـول للشـباب:

- «أنـا لازم أروح أزور بيـت دلال الأول عشـان أعيـد عليها، وبعد كـدا أزور خالتـي أم حربي».

فتركهم بهلول متوجهًا لدار دلال على الجسر، وعندما وصل أخذ يتكلم عند باب الدار، وهي مهجورة من زمن كأنه يخاطب أهلها، وهم أمامه، ويراهم رأي العين، ويتكلم وهو متفائل وسعيد:

- «كل سنة وانتي طيبة يا دلال، عيد سعيد عليكي يا حبيبتي».

مكث بجوار الدار قليلًا، ثم توجه لبيت خالته أم حربي، وعندما طرق الباب قالت أم حربي:

- «مين ع الباب؟»

رد بهلول بصوت مرتفع:

- أنا يا خالة.

- ادخل يا بهلول.

وعندما رأته أم حربي هشت وبشت في وجهه، وقالت:

- والله فيك الخير يا ولدي، كل سنة وأنت طيب، ويبارك فيك.

سألها بهلول:

- «أمال فين حربي يا خالة؟»

ردت وقالت:

- «راح يعيد على أهل البلد، وعلى خواله وعمامه، أمال انت مش هتلف على البلد تعيد الناس؟»

- «أيوا يا خالة، بس أنا قلت: أزورك انتي الأول وبيت دلال.

- والله فيك الخير، حاسن الجميل يا بهلول، ربنا يخليك يا ولدي يا شهم».

ثم بعد ذلك خرج بهلول؛ ليعيد على أهل البلدة كالعادة، وذهب لكل بيت وهو فرح سعيد، إلى أن جاء وقت الظهيرة فذهب لينام أمام بيت دلال تحت السنطة التي أمام البيت على الجسر ليستريح من عناء ذلك اليوم.

13 - السواقي حربي

مهما حاولنا النسيان، إلا أن الذكريات تظل محفورةً داخلنا، تذهب بنا لعالم جميل نتذكَّر فيه أجمل اللحظات، حتى وإن كانت مؤلمة يبقى لها رونق خاص بالقلب، فقد تجمعنا الدنيا بأشخاص، أو قد نمر بأماكن لم نعتبرها في بداية الأمر مهمَّةً، ولكن عند الابتعاد نشعر بقيمتها، ومدى تأثيرها.

«دوري يا سواقي زي
ما بدُّور الأيام
وبردي قلبي بميتك
ورويه دا عطشان
ياما جلست دلال هنا
وخيالها معطر المكان».

***

كان بهلول يسمي أي مكان كانت تذهب إليه دلال باسمها،

وكان يسمي السواقي حربي بسواقي دلال.

والسواقي حربي مكان أثري يبعد عن البلدة حوالي واحد كيلومتر من الناحية الغربية، وتكلم الناس عن السواقي حربي، هذا المكان المهجور، وقالوا عنه: إنه بُني أيام محمد علي، وكان فيه سواقٍ لرفع المياه لسقي الأرض، وقيل: إنه كان مقرًّا للتجار القادمين من بلاد المغرب العربي ناحية بئر عقيد ناحية العركي[1]؛ لأن التجار يأتون من ناحية العركي بطريق يسمى العقبة بالإبل محملة بالبضائع ليركبوا في النيل ناحية نجع حمادي، ولقد رأيت السواقي حربي مبنى قديمًا مهجورًا يرتفع عن الأرض، وبه آثار قديمة وبعض المياه، وما زال أثره باقيًا حتى الآن.

كان بهلول يذهب هناك أحيانًا مرة أو مرتين في الأسبوع؛ لأن دلال كانت تذهب هناك لترعى الأغنام هي وأمها، وتمكث هناك بعض الوقت؛ لأن هذا المكان مريح، وفيه بعض الأشجار والخضرة، والكثير من الناس يذهبون هناك، وعندما يذهب بهلول لسواقي دلال - كما يسميها - يأخذ راديو معه ليسمع الأغاني ليعيش الذكريات، وكيف كان يأتي لدلال وأمها هنا، وكان يمكث معهما الوقت الطويل، ويسعد برؤية وجه دلال،

(1) بلدة في الجبل الغربي.

ويسعد بضحكاتها وعبير ابتساماتها، ويجلس في كل مكان جلست فيه حبيبته، ويمشي في كل مكان مشت فيه دلال.

وينادي بصوته على دلال كأنها أمامه ويخاطبها ويقول:

- «ردي الغنم سرحت راحت غيط فلان يا دلال، هاتي الغنم سرحت». ويقوم ويهش هو كأن دلال هي التي تهش الغنم، وترجعها من غيط فلان، ويبقى ساعات وهو يعيش في خيال الذكريات، وعند الغروب يرجع للبلدة.

وهو قادم للبلدة يمر من الطريق الذي كانت تمر منه دلال إلى أن يصل للجسر.

ويبقى على الجسر حتى منتصف الليل بجوار دار دلال المهجورة، وهو يغني مع أم كلثوم: أغدًا ألقاك؟ حتى يتعب، ويذهب لنخلته لينام.

14 - لعب الكرة على الجسر

عندما كنا صغارًا كنا نلعب الكرة على الجسر، وكان المحترف أحمد أبو سيد، وكان أكبر الشباب سنًّا، وهو الذي كان دائمًا وأبدًا يشجعنا على لعب الكرة، بل يجمعنا على الجسر بعد العصر حتى نلعب لغروب الشمس.

كل أولاد البلدة يتجمعون؛ ليلعبوا الكرة حتى ولو كان الجو حارًّا جدًّا، وما كنا نشعر بالحرارة وسخونة الجو.

كنا نلعب بجوار بيت خالتي حميدة أم رضوان؛ لأنها تسكن على الجسر، وعندما كنا نريد ماءً نذهب ونشرب من مزاير[1] خالتي حميدة.

وكنا نلعب بكرة شراب نصنعها نحن، بسيطة وسهلة، ونلعب حفاة الأقدام على التراب الحامي في الحر، وكان الفائز دائمًا الفريق الذي فيه أحمد أبو سيد؛ لأنه كان محترفًا ولعيبًا،

(1) فخار به ماء.

وكنا نسميه محمود الخطيب.

عندما يسمع بهلول أصواتنا، وأننا تجمعنا على الجسر يأتي مسرعًا ليلعب معنا، وكنا نضعه في فريق؛ لأن عقله كان يغيب ويحضر، وعندما يحضر عقله يكون في قمة الثقة بنفسه، ويكون متزنًا ورزينًا.

وعندما يحرز هدفًا في مرمى الخصم يقول بأعلى صوته:

- «الجون دا عشان دلال».

فنصفق له ونشجعه على ذلك ليستمر في اللعب معنا، كل يوم بعد العصر يبقى بهلول معنا حتى المساء، لا يكلُّ ولا يملُّ.

كان الناس الكبار في بلدتي عندما يشاهدوننا نلعب الكرة على الجسر يتعجبون ويسخرون منا، ويقولون: «زي العفاريت يجروا ورا بعضيهم»، وخالتي حميدة تزعق بالصوت، وتقول:

- «طفشتوا فروجاتي».

وتوجِّه الكلام لبهلول:

- «حتى انت يا بهلول يا ولدي؟»

يرد عليها بهلول وهو يضحك بصوت مسموع:

- «خلينا نفرفش شوية يا خالتي، ربنا يرجعلك ولدك

بالسلامة من ليبيا».

ترد خالتي حميدة بطيبة قلبها وحنوِّها:

- «يا رب يا ولدي يا بهلول، العبوا ربنا يسعدكم».

وعند نهاية اللعب منا من يذهب للترعة؛ ليغتسل من التراب والغبار، كان بهلول يغتسل في الترعة مع بعض الشباب، ويغطس أمامهم ليضحكهم، ويعمل فيهم مقالب في الترعة، بعد ذلك نجلس على الجسر حتى تغيب الشمس، ثم نذهب لبيوتنا، ويذهب بهلول لحال سبيله.

15 - الحاوي

«صاحبت خسيس
لما دفي
زي التعبان
عضني فـ إيدي
يا عمي يا حاوي
ممكن من الخسيس
تحويني
لأن عضته بتألمني
وقطعت مصاريني
ومعلِّمه فـ قلبي
زي السكاكيني
يا عمي يا حاوي

تعبان الإنس

أصعب من حيٍّ

الجسر

يا ريت منه تحويني»

***

ذات يـوم كنـا نلعـب الكرة عـلى الجـسر كالعادة، فمـر حاوي الثعابـين يركـب حمـارًا، ويلـف على رأسـه عمامة خـضراء، ويقول:

- «حيّ يا سيدي يا رفاعي يا دسوقي مداد».

ويتعـوذ بتعويذات لا نفهمهـا، وعندما وقـف بجوارنا بحماره نـزل من عـلى الحمار بسرعـة، وجري نحـو الحلف[1]

على الجسر، ويضرب بعصاه التراب والحلف، ويقول:

- «اوعى تعضه عشـان سـيدي الرفاعي، عشـان سيدي أحمد، عشان سيدي الدسـوقي، تعال».

ويجـري ويـضرب بعصـاه، عندمـا رأينـاه توقفنـا وأخذنـا نراقبـه، ونتعجـب وتملكتنـا الدهشـة، وقـال بهلـول: «كيـف نحن

(1) نبات أطرافه محددة كأنها أطراف سعف النخيل والخوص.

نلعب كرة منذ ساعتين والثعبان يسكن بجوارنا لا يخاف ولا يهرب؟ وقال: من المعروف أن الثعبان لا يمكث في المكان الذي فيه ضوضاء، إنه يألف المكان الهادئ حتى لا يراه أحد.

فقلنا جميعًا:

- صحيح يا بهلول.

الحاوي يجري بجوارنا وينادي بصوته العالي، ويقول:

- مداد يا سيدي أحمد.

فرأيناه يضع يده وسط الحلف والركام ويخرج ثعبانًا صغيرًا، وجاءنا يجري: «أهو أهو، كان هيعض حد فيكم، لولا بركة سيدي أحمد الرفاعي لكان عضكم». وأخذ يقوم بحركات غريبة ويتطوح ويقول: مداد.

البعض منا ظل يضحك على الموقف، وكبار السن تعجبوا، وفهموا أنها ألاعيب حاوٍ يريد أن يعطيه أحدنا خمسة قروش.

فسأله بهلول:

- «اسمك إيه؟»

قال الحاوي:

- «خدامك وخدام الساحة الرفاعية عبد التواب».

قال له بهلول:

- «ممكن تفتح خشم التعبان ده؟»

فارتبك الحاوي، وبدت على وجهه علامات القلق والارتباك، وشعر أن بهلول كشفه، فتعلل وقال:

- «لا لا يعضك، ودي أوامر من الطريقة الرفاعية، وسر كبير مينفعش أكشفه».

وظل يتعلل، ويحاول أن يتهرب، لكن «بهلول» أصر أن يفتح له الحاوي فم الثعبان، وقال بهلول بإصرار وتهديد:

- «لو أنت مفتحتش خشمه أنا اللي هفتحه».

عندما رأي الحاوي أن «بهلول» مُصرٌّ اضطر، وقال:

- «أهو».

فنظر بهلول في فم الثعبان، فوجده بدون أسنان، عندما رأى بهلول ذلك قال بأعلى صوت وبعصبية:

«يا نصاب يا كداب، انت جاي تضحك على الناس في البلد وعلينا».

فارتبك الحاوي أكثر، واحمر وجهه، وتغير لونه، وشعر أنه وقع في الفخ، ولا بد أن يصنع حيلة ليهرب من بهلول،

والشباب من على الجسر، وعندما حاول ليركب حماره ليهرب تجمعنا حوله وطوقناه، وأخذ بهلول يهدده ويقول له:

- «أنت شايل أسنان التعبان دا عشان توهم الناس إنك لقيته على الجسر، أو في بيت من البيوت، ولكن أنت مخبيه في كم جلابيتك، وبطلعه وقت اللزوم عشان تنصب بيه على الناس».

واقترب منه بهلول ليضربه، ولكننا منعناه، فقال له:

- «لو شفت وشك هنا تاني هقطَّعك قطِّيع يا كداب يلا من هنا».

فركب الحاوي حماره بسرعة ليهرب؛ لأن «بهلول» كشفه، وكشف خطته، وهز حماره وغاب، فأخذنا نشكر «بهلول» على هذا الموقف النبيه الشجاع، وقال لنا:

- «أنا بعرف الناس النصابين، دول كدابين يخدعوا الناس الغلابة ويأخذوا فلوسهم والعيش منهم، والناس يصدقوهم ويتخدعوا فيهم».

بهلول لديه خبرة، ويفهم هذه الحركات عن هؤلاء؛ لأنه عاش الكثير من المواقف في هذه الحياة، وعنده شجاعة، لا يهاب أحدًا، ويتكلم في المجالس، ويحاور ويقول النكات،

ويضحـك ويبتسـم على الرغم مـن حزنه الدائم عـلى دلال، وكان عقلـه يرجـع إليـه كثـيرًا، ويعـي مـا يقـول، ويتكلـم بحكمـة في أشـعاره ومواويلـه وأغانيه في الأفـراح، وعندما يجلـس معنا تحت النبقـة عـلى الجسر.

16 - محاسن الطبَّالة

في سبعينيات القرن الماضي لم يعرف الناس في بلدتنا المطربين، وأصحاب الفرق إلا حلمي الشاعر (الربابة) وعبد الستار الزمرتي، والمزمار البلدي، هؤلاء فقط كانوا يحيون الأفراح، ومن هؤلاء امرأة تسمى محاسن كانت في العقد الخامس من العمر، سمراء، ذات صوت رخيم، تغني وتطبل في الأفراح، وتحيي الفرح من أوله إلى آخره، وتبقى في الفرح حوالي خمسة أيام، وكانت تأخذ ثلاثة جنيهات راتبًا على هذه الفترة التي تمكثها بالفرح بخلاف النقطة، وكانت النقطة قرش أو قرشين أو أقل، وكانت تطبل وتغني في الصباح وبالليل عندما يتجمع الناس والشباب، في الصباح للنساء، وفي المساء للشباب تحت ضوء القمر في الخلاء الطلق، ويرقص على طبلتها الشباب، وتغني لكل شاب أغنية باسمه.

وعندما كان الشباب يتجمع حول محاسن، كان بهلول معهم يرقص على طبلة محاسن، وكان ينقطها ويرقص، ويقول لها:

- «غنيلي أغنية يا محاسن».

- حاضر يا بهلول.

فيتحزم بهلول بشاله ويرقص، وهي تغني:

- «والله لأغنيلك يا بهلول يا غالي، يا زينة الشباب يا غالي».

ويرقص بهلول ويتمايل، ويقول لها:

- «ممكن يا محاسن أرقص على طبلة ونص؟!»

تضحك محاسن:

- حاضر يا بهلول يا غالي.

وكان بهلول يطلب منها أن تغني لدلال أغنية ليرقص عليها، فقال لها:

- «لو غنيتي لدلال ليكي عندي باكو معسل سلوم».

فرحت محاسن، وغنت له أغنية، وقالت: «يا بهلول يا راكب العجلة

حود عندنا دلال تحت الشجرة».

وعندما سمع بهلول اسم دلال انتشى وسعد ورقص، وأخذ يتطوح بسعادة، والشباب يصفقون له، ويردون على محاسن: «يا بهلول يا راكب العجلة

حود عندنا دلال تحت الشجرة».

كما غنت لبهلول: «يا عرباوي يا خيلة، يا مشمر كم الفلينة».

ومن الأغاني التي كان يحبها بهلول، وكان يرقص عليها، ويحبها الشباب كذلك: «حارد القُصَّة على جماله».

وكان الشباب يتجمع حول محاسن الطبالة إلى منتصف الليل في الهواء الطلق تحت ضوء القمر، وهي تغني وتطبل وهم يرقصون حتى ينتهي الفرح، وتذهب محاسن بما جمعته من مال وخبز وغلال، وتركب دابتها، وتذهب لبلدتها بجوار قرية العركي، إلى أن يأتوا بها لفرح آخر في البلدة.

17 - الجمَّالة

«يا عم يا جمال يا حلو الكلام
ميل وقول موال
ع الحب وحلو الوصال
حبيبي كيف الشهد
حلو المذاق
أنا اللي طول عمري
مربيه ع الجد
ومدلعه وصابر
على دلعه صبر
لأنه سقاني الحب
وصبه فِـ قلبي صبّ»

❊ ❊ ❊

يبدأ كسر القصب (قطع) في بلادنا من أول شهر نوفمبر بداية الشتاء إلى شهر مايو أول الصيف، وتبدأ الحركة والعمل.

ويرفع الناس القصب بعد كسره على الجمال، حتى يضعوه على شريط السكة الحديدية الخاصة بقطارات شركة السكر لشحنه وحمله للشركة، ولشركة السكر قطارات مخصصة لحمل القصب، ولها خطوط مثل قطار الركاب تمامًا.

فالجمال تنقل القصب من موقع الكسر إلى شريط السكة الخاص بالشركة، وأصحاب الجمال يطلق عليهم الجمَّالة.

وعندما يُكسر (يُقطع) القصب الذي فيه نخلة بهلول، تصبح النخلة مكشوفة للمارة وللجميع، ينام بهلول أسفلها؛ لأن المكان صار خاليًا من القصب، ويأتي الجمالة الذين ينقلون القصب يجلسون معه، ويتسامرون بالليل والنهار؛ لأن القصب أفدنة عديدة وغيطان مترامية الأطراف، فلذلك يبقى الجمَّالة وقتًا طويلًا مع بهلول لدرجة أنهم ينامون معه أسفل النخلة ويسهرون معه؛ لأنهم يعملون بالليل أحيانًا، ويستيقظون في الصباح الباكر، وأحيانًا يجلسون على الجسر بالليل يشعلون النار؛ لأن الجو بارد في الصباح وفي المساء.

وكان سعد أبو فهمي الجمَّال هو من يتولى رفع القصب

الـذي فيـه نخلة بهلول، ومعه خمسـة مـن الجمال، وسـعد أبو فهمي رجـل ضحـوك يحـب «بهلـول» ويحـب السـهر معـه، وكان يطلب مـن بهلـول أن يقول لـه من المواويـل والأغـاني الجميلة في السـهرة وهـم يشربون الشـاي.

سعد أبو فهمي لبهلول:

- «يـا ريـت تقلنا حاجة يـا بهلول نقـضي بيها السـهرة الجميلة دي عـلى مـا ترجع الجـمال من على السـكة؟»

بهلول وهو يقلب في النار ويحرك كنكنة الشاي يقول موالًا:

«تمللي قاعد وطال بيا القُعاد

وهجرت المدينة

والناس والحضر

وعشت لوحدي وقلبي

صار مثل الحجر

وشي للسما ونايم تحت الطل

ومن كتر البكا دبلت

جفوني مِـ السهر

وعايش ع الأمل والصبر

وحنين الماضي

الحزن تمللي ملازم قلبي

يا عيني منكسر

وبغني مواويل حزينة

وفِـ صحرا مفهاش بشر

امتي أروى مِـ الظمأ

والخُضرة وينزل المطر

ويفرح قلبي

وينور وشي

ويبقى زي القمر

ويرتاح القلب

من الهم»

قال سعد متأثرًا بقول بهلول:

- «الله الله يا قوال، إيه الروعة دي؟»

وقال مشجعاً لبهلول:

- «تصدق أنه كلامك جميل وبيدخل القلب».

رد بهلول ودخان النار يملأ وجهه، وفي يده الكنكنة مبتسمًا:

- صحيح يا سعد؟

- «أيوا يابن عمي أمال كلامك رائع (ضاحكًا) دا أنت فكرتني بأيام الشباب والحب والغرام وسهر الليالي».

ضحك سعد وبهلول وبعض الجمَّالة، وصب بهلول الشاي، وأعطى «سعد». قال سعد:

- «في إيدك يا قوال، والله لتشرب».

فشرب بهلول أول القوم، فقال له سعد وهو يبتسم:

«كيف أشرب قبلك وأنت سمعتنا كلام حلو الليلة يا بهلول؟»

رد بهلول باحترام وأدب:

- «شكرًا ليك يا عم سعد، طول عمرك أصيل وابن ناس».

إلى أن جاءت الجمال فنزلت في الغيط لتحميل القصب، فذهب سعد للجمال، وبقي بهلول يستدفئ بالنار لحين رجوع سعد، وقال سعد لبهلول راجيًا:

«يا بهلول حُط الكنكنة في النار عشان الجو برد بعد ما أحمل الجمال أرجع أشرب شاي».

- «حاضر يا ولد العم».

وهكـذا كان بهلـول يعيش ليالي الشـتاء مع الجمالـة على الجسر، ويسـهر معهـم، وينـام معهـم، ويقـول المواويـل والأغـاني لهـم، وكانـوا يحبونـه ويجالسـونه، ويشـترون له مـا يريد من البنـدر، وهو يخدمهـم ويرحـب بهـم هكـذا في كل عام.

18 - فهمي المدرِّي

كان أصحاب الحقول يجرنون القمح؛ ليُدرس على الجسر، وبعدما يُدرس يأتي رجل اسمه فهمي الأحياوي ليُدرِّي[1] بمدراة من خشب، وعمي فهمي هذا كان رجلًا مسنًّا يبلغ من العمرة تسعين عامًا، منحني الظهر، ذا لحية بيضاء، لكنه كان قوي الذاكرة، صبورًا يتحمل العمل، دءوبًا، وكان يحب عمله مخلصًا له، يأكل من عرق جبينه على الرغم من أن له أولادًا سافروا خارج مصر ومعهم مال، لكنه رجل عصامي وكان يقول: هذه حرفتي ورثتها عن أبي، ولقد وصاني وقال لي:

- «يا فهمي أوعى تترك حرفتك دي يا ولدي، اللي بلا حرفة خايب».

وكان يحدث بذلك كثيرًا، ويحث الشباب على العمل، وعندما يبدأ موسم حصاد القمح في بداية شهر مايو تبدأ الحركة، ويجرن الناس قمحهم، ثم يُدرس فيأتي عمي فهمي المدرِّي، كان

(1) يعزل التبن عن الغلة.

بهلـول يذهب لـه على الجسر؛ ليجلس عنـده ويؤنسـه، ويبقى معه وقتًـا طويـلًا بالنهار، وكان بهلـول يحبه؛ لأنه رجل حكيـم منظَّم في حديثـه، وكان ينصح «بهلـول» كثيرًا.

قـال لـه بهلـول ذات مرة، وهـو يتحدث عـن دلال والسـعادة ظاهـرة عـلى وجهه:

- «يا عم فهمي.

- نعم يا بهلول يا ولدي.

- وحشاني دلال يا عم فهمي قوي قوي ونفسي أشوفها؟»

عمي فهمي ينظر لبهلول جابرًا لخاطره:

«هتشوفها يا بهلول».

ويسأله سؤالًا مفاجئًا:

- «هي مش بتجيلك في المنام يا بهلول؟»

رد بهلول والحزن في عينيه، وقال وهو يتألم:

- «مـن فـترة مجاتـش يـا عـم فهمي مـش عـارف، ربـما تكون زعلانـة منـي». وهو يقـول ذلك ذرفـت عينه دمعـة تأثرًا بـما يقول وحـزن، عندمـا رأى عمـي فهمـي دمـوع بهلـول تأثر بهـا، وقال:

- «يـا بهلـول أنت بتحـب دلال، وهي كانـت بتحبك ومخلصه

ليـك، وأنا عـارف قصتكم من خمسـة وعشرين سـنة؛ لأني أنا كنت موجـود في البلـد، وشـغلي في البلد دي من خمسـين سـنة على الرغم إن بلـدتي بعيـدة، وأنـت كنت وما زلـت مخلص لحبـك، فليه حزين يـا بهلـول يـا ولـدي، وبتبكـي عشـان مجتكـش مـن فـترة في المنام؟ أكيـد هتزورك، وأنت بتوحشـها برضـه وبتحبك».

وقال له جابرًا لخاطرة:

- «ابسـط يـا عـم هتـزورك الليلـة دي، وتبقـى تقـول: عمـي فهمي قـال».

عندمـا سـمع بهلـول هـذا الـكلام اسـتراحت نفسـه، وأشرق وجهـه بالـسرور والسـعادة، وقـال:

- «بجد يا عم فهمي يسمع منك ربنا».

عمـي فهمـي كان رجـلًا حكيـمًا، طيـب القلـب، ذا خـبرة في الحيـاة؛ لذلـك كان العديد مـن النـاس يحبونه، وبهلـول كان يقضي معـه وقتًـا طويـلًا إلى أن يركب حمـاره، ويذهب آخر النهـار لبلدته.

19 - غفير الجرن

«سهران الليل لوحدي

أناجي طيفك يا دلال

يا قمر ليلي وسهرتي

الحلوة

نورك مغطي ع القمر

يا غنوة

يا محلى ذكرك يا سمرة

آه من دلالك يا أجمل

مهرة

لوحدي وطيفك مونسني

بحلم ربنا يجمعني بيكي

بكره

يا حلوة»

***

في موسم دِراس القمح الغفير والحارس بالليل على الجسر بهلول، نظير أجرة يأخذها من أصحاب هذه الجرون، والأجرة إما كيلة من الغلة أو جنيه في نهاية الموسم.

وينام بهلول على التبن بالليل، ويناجي طيف دلال، وينادي عليها بصوته تحت ضوء القمر، ويقول:

- «يا ريت تزوريني في المنام الليلة دي يا دلال؟ يا غالية يا روح الروح يا حتة من قلبي».

لا يوجد أحد غيره على الجسر بعدما يذهب بعض أصدقائه الذين يسهرون معه، يتركونه وحيدًا ينادي دلال، ويقول بصوت عالٍ:

- أنا الزناتي خليفة، أنا أبو زيد الهلالي، أنا حبيبتي دلال.

وكنت أسمع صوته من بيتنا؛ لأن بيتنا قريب من الجسر، وصوت بهلول يسري بالليل، وكان أبي ينام وهو مطمئن؛ لأن «بهلول» يحرس الجسر من الناحية الغربية، وينام الجميع على صوته مطمئنين، لا يخافون لصًّا ولا مفترسًا؛ لأن صوت بهلول يكفي ويخيف أي أحد، ويشعر أي لص أن أصحاب البلدة لم

ينامـوا، ولا يقـترب أحد منهـم، والبلـدة ليس لها ممـر للخروج إلا الجسر، وبهلـول غفـير على الجسر، إن مـر أحد بالليل لا بـد أن يراه بهلـول قبـل أن يدخـل البلدة، فـكان نعـم الحارس.

بهلـول يحـب الشـاي، وكل صاحب جرن يـأتي لـه بتلقيمة[1]، ويضـع الكنكنـة في الدمـس (راكيـة النـار) طـول الليـل، ويغنـي ويقـول: «يـا ليل يا عـين ع اللي فاتوا حبيبه سـهران الليـل لوحده».

وهـو يحـرك كنكنـة الشـاي في الدمـس آخـر الليـل يهز رأسـه وهـو سـعيد؛ لأن دلال زارتـه في المنـام هـذه الليلـة وهـو نائم على تبـن القمـح يقول:

«غزالي رق وعاد

من تاني

وسمعت كلامه اللي

يرقق الحجر الصواني

عيونه حلوه مجنناني

وشعره أسود وبديع رباني

جميل عايق على الأصل

(1) بعض السكر والشاي.

رباني

لما شوفته الليلة هز وجداني

قالي مكانك فِـ قلبي وأنت

لساك غالي»

قـرب الفجـر يمر عليـه خـالي إبراهيـم، والحاج زايـد، وعمي الحـاج سـيد، وأبو رشـيد يلقـون عليه السـلام.

يرد وهو مبتسم:

- وعليكم السلام يا حجاج.

قـال له خـالي إبراهيـم: «انـت باين عليـك مبسـوط الليلة دي يا بهلـول!».

يرد والابتسامة على وجهه:

- «أيـوا يـا حـاج؛ لأنـه دلال زارتنـي في المنـام، وأسـعدتني بكلامهـا الرائـع الجميـل.

- ربنـا يسـعدك ويهنيـك، طيب إحنـا هنصلي الفجـر وهنرجع نشرب شـاي معـاك جهز لنا الشـاي.

- يا مرحب يا حجاج في انتظاركم».

وبـدأ بهلـول في تجهيـز الشـاي لحـين رجوعهـم مـن الصلاة،

وعندما عادوا جلسوا يتحدثون معه حتى أشرقت الشمس، وكانوا كل صباح يفعلون ذلك، ويبقى بهلول عند الجرون حتى يأتي عمي فهمي المدرِّي يتسلم المكان، ويذهب بهلول لينام على نخلته المنبسطة على الأرض قليلًا، أو ينام أسفلها، أو ينام أمام بيت دلال تحت شجرة السنط، وهكذا حتى ينتهي موسم الدِّراس.

20 - الأستاذ علي

للمثقف دور كبير وبارز ومهم في المجتمع لتنويره، ورفع الشبهات عنه؛ حتى يسير المجتمع في طريق النور، وليعرف ينابيع الثقافة الحقيقية.

***

كنت أحب الأستاذ علي يوسف، وأحب الجلوس معه؛ لأنه كان شخصية مثقفة، ويفهم شخصية بهلول، وكان يتكلم عن بهلول كثيرًا، ويذكره بالخير دائمًا أبدًا.

الأستاذ علي كان مدرسًا للغة العربية في المعهد الأزهري، وكان يدرس لطلاب المرحلة الثانوية، وكانت له مكانة طيبة في قلوب الناس، ويحفظ من الشعر الكثير والكثير، وكان يستشهد به في جلساته عندما يتحدث مع الناس، وكان يسمي «بهلول» بقيس العاشق.

ويقول عن بهلول: قصته حدثت عبر التاريخ في الأدب

العربي، وهناك قصص مشابهة لقصة بهلول، مثل قيس بن الملوح الذي أحب ليلى وهام بها عشقًا، وذكر ذلك في أشعاره التي كان يقولها في ليلى، أو يصف فيها ليلى وجمالها.

لقد حُرم قيس ليلى فكان متيَّمًا، وذكر كل هذا شعرًا.

وذكر لنا الأستاذ على بعض أبيات من شعر قيس في ليلى، وأن قيسًا كان يمشي في الطريق الذي كانت تمر به ليلى للذكرى، ويذهب للبلدة التي كانت تسكن فيها ليلى، وقال: قصة بهلول شبيهة بقصة قيس، مع الفارق أن «بهلول» قُتلت حبيبته، وقيس تزوجت حبيبته غيره رغم عنها.

وذكر بعض الأبيات قائلًا:

أمرُّ على الدِّيارِ ديارِ ليلى أُقبِّلُ ذا الجدارَ وذا الجدارَا

وما حبُّ الدِّيارِ شغفنَ قلبي ولكن حبُّ مَن سكنَ الدِّيارَا

قال الأستاذ على هذه الأبيات لقيس، وأخذ يشرح أن «بهلول» مثل قيس يسكن بجوار دار دلال للذكرى ليتذكر دلال؛ لأن دلال سكنت هنا فعشق مكانها وموطنها وديارها.

وقال لنا الأستاذ على:

- «يا شباب، تعرفوا قصة بهلول دي ليها كام سنة؟»

قلنا جميعًا بصوت واحد:

- لا نعرف، ولكن نسمع من الناس وأهل البلد.

فقال عمر: «بهلول عمره الآن خمسة وخمسون عامًا، ونحن الآن في عام 1977، القصة دي لها خمسة وعشرين سنة، حدثت القصة في الخمسينيات من هذا القرن».

الأستاذ علي عنده معلومات موثقة، ويحب أن يوثق الكلام بالتواريخ، وأخذ يكلمنا عن بهلول، ويقول: العاشقون أرق أفئدة، وقلوبهم لا تحمل الحقد ولا الغل ولا الكره، أفئدتهم كأفئدة الطير؛ لأنهم عشاق، وأحبوا بإخلاص وصدق.

وكان يجلس معنا في المجلس الشيخ خلف إمام المسجد، وقال له الأستاذ علي:

- يا شيخ خلف؟

الشيخ خلف:

- نعم يا أستاذ علي.

الأستاذ علي موجهًا كلامه للشيخ وللحضور:

- «بهلول كان خاطب دلال وكتب عليها وخلاص، كان بكره دخلته، يعني يوم حنته يا مولانا قتلها رسلان أبو محمدين

الجعـان وغرقهـا في ترعـة المـرة؛ فبهلـول مـن شـدة الصدمـة فقـد عقلـه؛ لأنـه لم يتخيـل أن يـرى حبيبتـه مقتولـة أمـام عينيـه، وكان خـلاص قـاب قوسـين وسـيتزوج يـا مولانـا ويسـعد مـع حبيبتـه دلال، لكـن غـراب البـين خطفهـا وقتلهـا، فحبـه شريـف نظيـف زوجتـه وحبيبتـه وقـرة عينه.

ولقـد قـرأت أن: مـن أحـب وعـف ولم يغضـب الجليـل لـه الجنـة»، وقـال موجهًـا كلامـه للشـيخ خلـف ولنـا:

- يـا شـباب الحـب العفيـف العـذري النظيـف الـذي يكـون الهـدف منـه الـزواج، لا شيء فيـه، وقـد قـرأت في كتـاب «روضـة المحبـين ونزهـة المشـتاقين» لابـن قيـم الجوزيـة مـا يشـابه ذلـك، وذكـر ابـن القيـم أن الحـب لا بـد أن يكـون الهـدف منه الـزواج لا الحـرام، إن كان كذلـك فلـه ثـواب إذا قصـد العفـة والتحصـن.

فرد عليه الشيخ خلف قائلًا:

- نعم يا أستاذ علي.

وهذا الكلام شرحته لبعض الشباب عندما سألني وقال لي:

- «يـا مولانـا أنـا بحـب بنت عمـي، وهـي مخطوبـة لي ونحن صغـار وسـأتزوجها قريـب هـل هذا حـرام؟»

فقلت له:

- ليس بحرام ما دمت لا تفعل ما يغضب الله، وحبك شريف وعفيف، وقصدك الزواج منها.

حوار شيق وممتع، وإني أجد حلاوة ومتعة في هذا الحديث؛ لأنه على مرادي وغايتي، وقد دخل الكلام قلبي واستمتعتُ بذلك الحديث.

الأستاذ علي ذكر لنا أشعارًا وقصصًا من الأدب العربي مشابهة لقصة بهلول، ولقد أعجبني سرده للقصص، واستشهاده بأبيات الشعر، ومن خلال كلامه حبَّبني في الأدب العربي، في ذلك الحين كان عمري ثلاثة عشر عامًا، عندما كبرت وكنت في الثانوي، كان عندي نهم وحب رهيب للقراءة، خصوصًا في الأدب والتاريخ.

في الجلسة التي كان يجلس فيها معنا الأستاذ علي والشيخ خلف تحت النبقة على الجسر بعد العصر استفدت منها كثيرًا، فهمتني قصة بهلول، وقربتني منه أكثر.

الأستاذ علي وجه لنا كلامًا وأسئلة، وقال:

- يا شباب، أرجو منكم ألا يؤذي أحد «بهلول»، ولا يسخر منه؛ لأنه صاحب مبدأ وصادق في حبه، ومخلص له.

وقال:

- عليكم بالقراءة والاطلاع، واجتهدوا في الدراسة.

وهو يكلمنا نظرنا على الجسر رأينا «بهلول» يمر ويغني، ويقول كلامًا لا نفهمه؛ فنادى عليه الأستاذ علي:

- يا بهلول.

- نعم، (وهو مبتسم ضحوك) أستاذ علي.

الأستاذ علي هاشًّا باشًّا في وجه بهلول ومرحِّبًا:

- أهلًا أهلًا بقيس بن الملوح الصبور الوفيِّ لحبه.

عندما سمع بهلول هذه الكلمات من الأستاذ علي ملأ وجهه السرور، وفرح وسعد بذلك الترحيب والاستقبال الطيب.

وجلس بيننا بهلول تحت ظل شجرة السِّدر (النبقة) مستمعًا لحديث الأستاذ علي، ثم هبَّ واقفًا كأن ثعبانًا لدغه، وعندما رأينا ذلك تعجبنا منه واستغربنا؛ فسأله الشيخ خلف في لهفة:

- «مالك يا بهلول جرا إيه؟»

فرد بهلول وهو قلق:

- «أصله الوقت دا لازم أروح أمر على دار دلال على الجسر».

وخـرج يجـري عـلى الجـسر متوجهًـا لـدار دلال حتـى اختفى عـن الأنظـار، فعلـق الأسـتاذ عـلي قائـلًا لنا:

- هـذا هـو حـال العشـاق، مشـغولون بأحبتهم، وقـد تعلقت قلوبهـم بالذكريات؛ فنسـوا حياتهـم وملذاتهم.

بعـد ذهـاب بهلـول بفـترة قصـيرة قـام الأسـتاذ عـلي ومعـه الشـيخ خلـف وذهبـا، فبقينـا نحـن قـرب المغـرب، ثـم بعـد ذلك توجهنـا لبيوتنـا.

21 - طحين القمح

بهلول يطرق باب خالته أم حربي، ومعه جوال مليء بغلة القمح التي أخذها أجرة من غفرته للجرون بالليل، يقف أمام الباب يتصبب عرقًا؛ لأن الجوال ثقيل على كتفه:

- «يا خالة أنا بهلول.

- خش يا ولدي يا بهلول».

يدخل بهلول والجوال على كتفه، وهو يتصببُ عرقًا ومرهق ومجهد ظاهر عليه الإجهاد من ثقل جوال الغلة:

- «السلام عليكم يا خالة.

- وعليكم السلام يا ولدي، كيفك؟

ما شاء الله خير كتير، ربنا يزيدك يا بهلول يا ولدي.

- دا فضلة خيرك يا خالة».

أم حربي تقول لبهلول:

- «الغلة دي هتخزنها عندي، وتأخذ كل ما تعوز شوية،

ولا هتطحنها مرة واحدة وتخزنها دقيق».

يرد بهلول وما زال العرق يتصبب منه:

- «انتي شايفة إيه يا خالة؟»

ترد أم حربي ناصحة لبهلول:

- «أنا شايفه والأحسن إنك لما تعوز أخبز لك تطحن وتخبز، لكن لو طحنتها مرة واحدة ممكن الدقيق يخرب ويدود ويعفن».

بهلول راضيًا بما قالت خالته أم حربي:

- «تمام يا خالة.

- بس أقلك يا بهلول يا ولدي: أنا تعبانة من يومين، ومش قادرة أطحن على الرحى يا ولدي، ممكن تأخذهم وتروح الطاحونة ببهجورة».

يرد بهلول ويقول:

- «ألف سلامة عليكي يا خالة، بصراحة انتي مش بتقصري معايا وبتخدميني كتير».

وذهب بهلول من بيت خالته أم حربي ليبحث له عن حمار؛ ليضع عليه الغلة، ويذهب للطاحونة ببهجورة ليطحن جزءًا

مـن الغلـة حتـى تخبز لـه أم حـربي، وذهب لأحـد الناس ليسـتلف منه الحـمار، فقـال له:

- تفضل يا بهلول.

وقال له:

- والله لو لم أكن مشغولًا لذهبت بهما للطاحونة بنفسي.

وأخـذ بهلـول الحمار، ووضـع عليـه جزءًا مـن الغلـة، وتوجه لقريـة بهجـورة ليطحـن الغلـة، وقـرب المسـاء عـاد بهلـول مـن الطاحونـة، واشـترى لأم حـربي سـكرًا وشـايًا، وبعـض الطلبات، وعندمـا وصـل رحبـت بـه أم حـربي ودعـت لـه:

- «ربنا يباركلك يا زين الرجال».

وقالت له:

- «بكرة هخبز لك».

قال مشفقًا عليها:

- «انتي تعبانة، خليها يوم تاني».

ردت:

- «لا يا ولدي أنت تأكل إيه؟

ملكش دعوة، مرات ولدي حربي هتساعدني، ربنا يبارك لها».

فقال لها بهلول وهو مبتسم:

- «ربنا يبارك فيكي يا خالة، انتي في مقام أمي الله يرحمها.

- الله يرحمها يا ولدي ويحسن إليها».

يخرج بهلول تاركًا خالته أم حربي، متوجهًا للجسر ليذهب لنخلته؛ لأن الليل قد دخل وحل الظلام.

22 - النَّبقة

التاريخ: هو أحداث الماضي، التاريخ هو كل ما حدث أمس ونقرؤه ونتذكره الآن، وما يحدث اليوم سنتذكره وسيُذكر غدًا كتاريخ من الماضي، فالتاريخ محدث ومستمر إلى أن تنتهي البشرية، التاريخ له أهمية كبيرة؛ لأنه يعبرعن ماضي البشر، وما فعلوه بالأمس، وما وصلوا إليه اليوم، فمن ليس له تاريخ ليس له مستقبل، والجميل أن تجد من يُبسِّط لك التاريخ كالحكاية لتصل إلى عقلك، وتستقر في وجدانك، والتاريخ شيق ومشوق لا بد من الاستفادة من أحداثه عبر الأزمان.

***

ذات صباح كنا نجلس تحت ظل النبقة على الجسر أنا وبعض الشباب نتكلم ونضحك، وفجأة هلَّ علينا الأستاذ علي يوسف المدرس بالأزهر الشريف، وهو والأستاذ خليل محمد الموظف في مجلس محلي قرية (زليتم)، وجلسا معنا تحت النبقة، ولقد رحبنا بهما.

فسألنا الأستاذ علي وهو يبتسم وقال:

- «بتتكلموا في إيه يا شباب؟»

رد راشد أبو رشيد:

- «كنا بنتكلم في أشياء كثيرة يا أستاذ».

هز الأستاذ علي رأسه:

- «خير، طيب أخباركم في الدراسة إيه؟»

قلنا جميعًا وبصوت واحد:

- «كويسين».

فقال الأستاذ علي:

- «أنا عارف منكم من يدرس بالأزهر، ومنكم من يدرس بالتربية والتعليم، طلاب الأزهر أنا عارف مستواهم، وأعرف حضورهم واهتمامهم وجدهم واجتهادهم، والبعض منهم أتنبأ له بمستقبل عظيم.

عندما قال ذلك شعر كل من يدرس بالأزهر أنه المقصود بهذا الكلام فسعدنا بكلماته، فقلنا - طلاب الأزهر:

- شكرًا يا أستاذ.

وكانت الابتسامة على وجوهنا جميعًا.

الأستاذ علي لديه حب للتاريخ، وما جلس مجلسًا إلا وذكر حدثًا تاريخيًّا أو موقفًا أو قصة تاريخية، لقد حبب مادة التاريخ إليَّ، وشدني مجلسه وثقافته الموسوعية والمبسطة.

لقد تكلم عن الجسر والأحداث التي دارت عليه، وقال:

- يا شباب، أنتم تجلسون على هذا الجسر المرتفع عن الأرض حوالي ثلاثة أمتار، وطوله 40 كيلومترًا، يسمى الملولو أو طراد الدهسة ، ولقد شُيِّد لصد مياه النيل عند الفيضان؛ حتى لا يُغرق الفيضان الأرض، ولقد سكن عليه العديد من البشر: قبيلة الرشايدة، وقبيلة العوازم، وقبيلة العزايزة، وهذه القبائل عربية مهاجرة من الجزيرة العربية منذ قرنين من الزمن، لكن حدث سنة 1948 من هذا القرن على هذا الجسر أحداث دامية؛ ألا وهي أن بعض اللصوص من بلاد أخرى بالتعاون مع بعض المقيمين على الجسر كانوا يسرقون ويقتلون ويخربون، ثم يأتون ليختبئوا هنا، فأصبح وكرًا وملجأً لهؤلاء قاطعي الطريق والمخربين، فقامت الحكومة بتهديد سكان الجسر، وتشتيتهم في بقاع الأرض إلا مجموعة من قبيلة الرشايدة بقيت حتى الآن.

وأنا أستمع لحديثه بإنصات وتركيز شديد؛ لأني أحببت التاريخ من حديثه،

وأخذ يتكلم وقال:

- انظروا لهذه النبقة العتيقة، لقد وُلدتُ فوجدتها هكذا ذات تاريخ قديم، ولعبنا عليها، وكل الأجيال لعبوا عليها، وتسلقوها مثلنا، وكذلك أنتم.

وأخذ يشير بيده:

- انظروا يا شباب للنخل وللأشجار كلها قديمة بقدم الجسر، نعم على الجسر تاريخ لا بد أن نعيه جيدًا، ونحكيه للأجيال.

حديث شيق ورائع عندما تعرف تاريخ مكانك الذي تعيش فيه، والأرض التي تلعب عليها، وتقضي جُل وقتك عليها، تحتضنك بين ذراعيها وأنت صبي صغير لم ولن تنساها مهما حييت.

الحديث عن التاريخ جميل، وله رونق مشوق، لقد سأل أحد الشباب الأستاذ سؤالًا في الأحداث التي تمر بها مصر، وكان من المعترضين على زيارة الرئيس السادات لإسرائيل من أجل السلام، فرد عليه الأستاذ علي، وقال وهو يبتسم ويسخر من الزيارة:

- نحن الآن في 19 نوفمبر 1977 ولقد زار السادات إسرائيل اليوم، وهذه الزيارة قد أوجعتني وآلمتني أشد الإيلام على

الرغـم مـن أني أحـب الرئيـس السـادات صاحـب النـصر العظيم الـذي رفـع رءوسـنا للسـماء، لكـن النهايـة مؤلمـة وغير جيـدة على الرغـم مـن النـصر العظيـم، وأنا معـترض بشـدة عـلى الزيارة.

وأخـذ يتحـدث بأسـلوبه الشـيق عـن الرئيـس السـادات، وكشـف لنـا عـن معلومـات قيمـة وعظيمـة عـن الرئيـس أنـور السـادات قرأهـا عنـه، قـال:

- السـادات رجـل فـلاح بسـيط يحـب الطبيعـة، ويكـره التكلـف والتعقيـد، يتحدث بعمق، شـعبي مـصري الملامح قـوي الذاكرة، عنيد مـع خصمـه متواضـع، والحيـاة في عصره سـهلة ورخيصـة ومنفتحة.

وقال:

- أنـا أحبـه كرجـل سياسـة محنك، لكن الـذي أحزننـي أنه قد ضيـع كل هذا باتفاقية السـلام التي نسـفت كل شيء.

ونحـن نسـتمع للأسـتاذ عـلي بإنصـات وتركيـز دخـل بيننـا بهلـول متسـللًا بـدون صوت ولا سـلام، وجلـس بيننا، ولم نشـعر بـه إلا وهو يتكلـم، وفجأة هـبَّ واقفًـا وملوحًا بيده وقال بحسـن نيـة وبصـوت عالٍ:

- «يا أسـتاذ عـلي، والله والله لو أخبرني الرئيس أنور السـادات عـلى أن يذهـب لإسرائيـل لقلـت لـه: لا، ومنعتـه مـن أن يذهب،

والله لـو عرفـت لرحـت قابلتـه، وقلـت لـه: لأ مضيعـش اللي انت عملتـه في شربـة مية».

وعندمـا سـمعنا تعبـير بهلول البسـيط ضحكنـا جميعًـا وبقوة، وقـال وهـو واقـف كذلـك، والجديـة في كلامه:

– «يـا جماعـة هـو إسرائيـل دا محـدش قـادر عليـه حـد يطخـه بعيـار ويخلصنـا منـه».

ضحكنـا كذلـك على الفطرة والبسـاطة التي يتكلـم بها بهلول، وقال له الأسـتاذ عـلي موضحًا:

– يـا بهلـول، إسرائيل هـذا ليس فردًا، بـل مجموعة مـن اليهود المغتصبـين الذين جاءوا من شـتى بقـاع العالم، واغتصبـوا جزءًا من فلسـطين، وأجزاء مـن بعض البـلاد العربية مثل سـوريا ومصر.

فقال بهلول ببساطته:

– «يعنـي حراميـة يا أسـتاذ زي رسـلان أبـو محمدين كـدا اللي قتـل دلال، وكان يـسرق البلد».

فرد عليه الأستاذ علي:

– «أيوا كدا صح، بس يا بهلول رسلان فرد ودول مجموعة».

فقال الأستاذ خليل معلقًا على الزيارة:

- يا جماعة يجب أن نعرف أن المكسب الأكبر في عملية السلام هذه سيكون لإسرائيل؛ لأنها ستأخذ هدنة من الحرب، ولكنها لم ولن تترك سيناء ولا البلاد المجاورة لها؛ لأن مخططها الاستعماري من النيل للفرات، وهي في هذه الهدنة ستتقوى اقتصاديًّا وسياسيًّا وعسكريًّا، ثم تنقض مرة واحدة لتحقق أهدافها، يجب أن نعرف ان اليهود أصحاب مكر وخداع، ولن يسكتوا، وسيبدءون من الآن فصاعدًا ببث سمومهم في الوطن العربي، وفي مؤسسات الدول العربية كالإعلام والتعليم، يعني اليهود سيأخذون هدنة من الحرب العسكرية ليتفرغوا للحروب الفكرية بين الشباب في الوطن العربي.

وحدث الآن بالفعل؛ لقد سيطر اليهود على الإعلام، وعلى الاقتصاد، وبثوا سمومهم بين الشباب، وأشعلوا الفتن والحروب الأهلية في بعض البلاد العربية، وخربوا الأراضي والمنشآت، ودمروا كل شيء، وتقدموا ونحن تأخرنا.

أعجب بهلول بكلام الأستاذ خليل، وقال مستغربًا:

- «مش فاهم حاجة، طيب لازم نستعد ليهم يا أستاذ خليل، أنا عندي شمروخ ومطوى قرن غزال وفأس، هبعتهم ليكم عشان العركة اللي بتقول عليها دي».

فضحكنا جميعًا من كلام بهلول وتعليقه الفطري البسيط، وقال الأستاذ علي يوسف للجميع:

- الاستعداد أكبر من ذلك بكثير طبعًا يا شباب؛ وهو التمسك بالدين والثوابت، وفهم القرآن فهمًا صحيحًا، وبالعلم والتطوير القتالي، وتطوير السلاح والتنمية الاقتصادية... إلخ.

وفجأة ونحن ننصت للأستاذ على قال عبد الحميد سالم بصوت خافت لبهلول:

- دلال دلال يا بهلول.

فتغير حال بهلول، وهب واقفًا كأنما لدغه ثعبان، تغيرت ملامح وجهه واكتست بالغضب، وأخذ يرفع صوته:

- «دلال دلال، جايلك يا دلال، هزورك قريب».

وأخذ يصرخ ويقول:

- «دلال زارتني الليلة دي، وقالت ليا: وحشتني يا بهلول نفسي أشوفك» وخرج من بيننا، وأخذ يجري على الجسر:

- «جيلك يا دلال، قريب هزورك قريب».

فاستنكرنا هذا الفعل من عبد الحميد، ولمناه على فعله، وقال له الأستاذ خليل معنفًا:

- لقد كانت الجلسة مفيدة، لمَ فعلت ذلك؟

فطأطأ عبد الحميد رأسه في الأرض استحياءً من الموقف، فسكتنا جميعًا، ولكننا استغربنا واندهشنا من قول بهلول: «دلال زارتني وقالت لي: وحشتني يا بهلول، ونفسي أشوفك وجايلك» ومن هذه الكلمات التي قالها.

فأخذ بهلول يجري على الجسر وهو يتصببُ عرقًا، وينادي على دلال، ويقول بصوت عالٍ:

- «جايلك يا دلال».

ثم قام الجميع من تحت النبقة كلٌّ لبيته؛ لأن الغروب أوشك على القدوم، وتركنا «بهلول» يجري على الجسر وحده.

23 - الذئب

شيء مـؤلم، وللـماضي حنـين دائم، ولكـن ليس له رجـوع مهما بلغـت روعته.

***

خيـم الليل بسـكونه وهدوئـه الرائع الجميل، فـكل أهل البلدة في نـوم عميـق لا حركة ولا صوت؛ لأن الجو شـتاء وبرد شـديد لا يسـتطيع أحـد الخروج في الليـل من الـبرد؛ لأننا في أول شـهر يناير يكـون الـبرد شـديدًا وقارسًـا فلا يخرج أحـد في ذلـك الوقت؛ لأنه لا يوجـد كهربـاء، والظلام دامس.

لا نسـمع إلا أصـوات الذئـاب في القصـب تعـوي مـن شـدة الجـوع، وكنـتُ أخـاف عندمـا أسـمع أصواتهـم، وأرتعـد مـن الخـوف، لكـن أمـي تقـول:

- «نـام يـا ولـدي الديـب بعيـد، وأنـت نايـم معانـا، وهـو في القصـب بعيـد».

في تلك اللحظة تذكرت «بهلول» كيف ينام في القصب وحده، والذئاب تعوي حوله، خفت عليه وقلقت، ولم أنم تلك الليلة إلا قرب الفجر، وعندما استيقظتُ في الصباح مبكرًا.

سمعت أمي تقول لأبي بصوت منخفض:

- «نقوله يا حاج ولا إيه؟»

قال لها بصوت منخفض:

- «لا، لما يفطر الأول».

وأنا أنظر إليهم مستغربًا من الكلام والوشوشة بصوت منخفض، وشعرت أن هناك شيئًا أو حدثًا ما يخبئونه عني؛ لأني لاحظت على وجه أبي وأمي وإخوتي قلقًا، وأنهم يريدون إخباري بشيء.

بعدما تناولت إفطاري، وكانت الساعة تقترب من السادسة صباحًا؛ لأن من عادة أبي أن يستيقظ مبكرًا، ويخرج من البيت للحقل الساعة السادسة صباحًا في وقت الشتاء، وفي الصيف الساعة الخامسة صباحًا، وعندما هممت بالخروج قال لي أبي:

- تعال.

وعندما اقتربت منه قال لي:

- «عايز أخبرك بخبر بس متزعلش؛ لأني عارفك متعلق ببهلول وهيصعب عليك».

شعرت أن أبي سيخبرني بخبر محزن، دق قلبي وازدادت ضرباته، وقلقت جدًّا من هذا الخبر المفاجئ، قلت له بلهفة:

- «فيه إيه يا بوي؟»

قالي لي بحزن وأسى:

- «بهلول أكلته الديابة الليلة دي».

عندما سمعت الخبر نزل على رأسي كالصاعقة، واغرورقت عيناي بالدموع، وشعرت بدوار، وأخذت أسأل أبي:

- «مين اللي قلك، وكيف وأمتى؟»

قال لي:

- «الليلة دي بعد نص الليل.

- طيب مين قلك يا بوي؟

- أنا لسه جاي من على الجسر قبل ما تصحى أنت من النوم، وتركت الناس من البلد هناك عند الجثة منتظرين الحكومة تيجي عشان تقرر».

بعدما سمعت الخبر من أبي، خرجت من البيت أجري

متوجهًا ناحية الجسر، ولما وصلت هناك وجدت العديد من الناس منتظرين بجوار جثة بهلول، ووجدت جثته مغطاة بكومة من قش القصب، والناس حولها يجلسون منتظرين الحكومة.

عندما نظرت لجثة بهلول وهي مغطاة بالقش بكيت بكاءً شديدًا، وتذكرت مرحه وحزنه وحرمانه، وحبه ووفاءه وضحكه ونكاته وألمه، وحرمانه من حبيبته، ونومه على النخلة في البرد.

كل هذا دار برأسي وأنا أنظر إليه وهو مغطى بالقش.

وكان بين الحضور خالي إبراهيم الذي ناداني:

- «خد تعاله، متبكيش خليك راجل وجدع أمر ربنا نافذ».

سألته بحزن والدموع تسيل من عيني:

- «مين اللي خبرك يا خالي؟»

أجابني والحزن في عينيه:

- «جاني سعيد أبو محمد الغفير في الإصلاح الزراعي، وهو جاي من شغله بالليل، ونادى عليَّ: يا حاج إبراهيم، طلعت له سلم عليَّ وقالي: وأنا جاي من الشغل بالليل رأيت الديابة بياكلوا في واحد على الجسر من ناحية بيت أم دلال

المهجـور، ولما شـفوني هربـوا في القصب، بصيت عليـه عرفت إنه بهلـول، خرجنـا أنـا وهـو عـلى الجسر في نفس المـكان فعـلًا طلع هـو بهلول الديابـة مبهدلينـه، وفتحـين بطنه، ومطلعـين مصرينه، وكلـين كبـده وبعـض فخذيـه. وسـعيد الراجـل مسـبنيش لحـد الصبـح، ولمـا طلـع الصبح بعـت ابن خالـك يبلغ نقطـة الشرطة، وأهـو مسـتنيين لسـه مجوش».

قلت لخالي وأنا أبكي:

– «عـارف يا خـال، أنا سـمعت الديابة الليلـة دي تعوي، وأنا كنـت خايف، وكنت حاسـس أنه في حاجـة هتحصل».

فرد عليَّ بحزن:

– «أيوا، وأنا برضه سمعتهم».

وأخذ يخفف عني ويقول:

– «هـون عـلى نفسـك، دا أمـر ربنا، هـو صحيح أمـره يصعب عـلى أي حـد، لكن أمـر ربنا نعمـل إيه؟!»

وكان مـن بـين الحضـور الأسـتاذ عـلي يوسـف يجلـس ويضع يـده عـلى خـده، وهـو حزيـن، الحـزن ظاهـر عـلى وجهـه، عندمـا رأيتـه توجهـت إليه.

ولما رآني قال لي بأسى وحزن:

- مات قيس العاشق.

وهو يقول هذه الجملة نزلت دموعه على خده، عندما رأيت دموعه انفجرت في البكاء بشدة، وجلست على الأرض بجواره، فقام فضمني بقوة، ووضع يده على ظهري وقال:

- هكذا العشاق يموتون.

وقال لي:

- من المؤكد أن «بهلول» وجد الذئاب مختبئة في بيت دلال المهجور؛ لأن بيت دلال قريب من حقول القصب، وأتوقع أنه عندما زار دار دلال كالعادة، ودخل هجمت عليه الذئاب، وجرجرته على الجسر، ونهشت جسده حتى مات.

وقال وهو يتنهد وأنا في حضنه:

- ماتت دلال مقتولة، قتلها المجرم رسلان الجعان، وبهلول افترسته الذئاب!!

جاء الناس من البلاد المجاورة ليشاهدوا هذا الحادث الأليم، ويلقوا النظرة الأخيرة على بهلول «قيس بن الملوح العاشق الوفيِّ».

وكلما أنظر لجثة بهلول يتقطع قلبي، وتنهمر دموعي بغزارة حتى الحضور بكوا عليه وحزنوا.

وجاءت خالتي حميدة، وأم حربي، وخالتي فهيمة أم إبراهيم العريض، لإلقاء النظرة الأخيرة على بهلول.

قالت خالتي حميدة:

- «الله يرحمه، كان غريب مسكين، وكان يقيل تحت الصفصافة اللي قدام بيتي».

وتقول وهي تبكي:

- «مين هيقيل بعد كدا؟! الله يرحمك، الوداع يا بهلول».

وبكته أم حربي بشدة وقالت:

- «طول عمري معتبراه زي ولدي، مش بحرمه من حاجة، الله يرحمه، إمبارح قبل المغرب كنت سمعاه يجري على الجسر ويقول: جايلك يا دلال».

وتتكلم بحرقة وحزن شديدين.

خالتي فهيمة تقف بعيدًا عن الرجال بعصا تتوكأ عليها تحت شجرة السنط على الجسر، وتضع رأسها على عصاها، وتبكي وتقول:

- «المسكين لا أهل ولا عيلة، ولا حد يبكيه ويحزن عليه، طول عمره ما طلع العيبة من خشمه، وكان يقلي: يا جدة فهيمة، والله كان في غلاوة إبراهيم ولدي».

خالتي فهيمة تسأل أم حربي وهي تبكي:

- «كلاب بهلول كانت فين الليلة دي؟!»

أم حربي ترد وهي تبكي:

- «والله يا ختي ما عارفة، بيقولوا: دا هو طلع الجسر ودخل دار دلال، ولقي الديابة فيه، وحاول يطلعهم، لكن الديابة أقوى فموتوه».

خالتي حميدة تشارك في الحوار وتقول:

- «أمر ربنا دا مكتوب الأجل انتهى، لا تنفع كلاب ولا غيره».

وبكاه سعد الجمَّال، وجاء عندما سمع بهذه الفاجعة المؤلمة، وأخذ يبكي بصوت ذي نحيب، وأبكى من حوله، وكان يقول وهو يبكي:

- «لسه مقابله امبارح وأنا معدي على الجسر، وسلم عليَّ وأخدني بالحضن، وضمني لصدره، شعرت أنها ضمة مودع، يا عيني عليك يا بهلول، نهايتك قاسية مؤلمة، الله يرحمك».

وتوقف عن العمل في ذلك اليوم، وربط جمله في شجرة الصفصاف على الجسر ليذهب معهم إلى الترب ليدفنوا «بهلول».

موقف مؤلم ومؤثر يقطّع القلوب، ويملأ القلوب حزنًا، يذرف الدمع من العين. جثة ملقاة على التراب، مغطاة بالقش، والناس حولها ينتظرون المسئولين حتى يأتوا.

هذا المشهد بقى للساعة العاشرة صباحًا، حتى جاءت الحكومة والطبيب الشرعي والنيابة والشرطة، وعندما قرروا الدفن، وجاءوا بالكفن والمغسِّل، ذلك المشهد عصر قلوب الناس، وبكوا «بهلول بشدة»، وهزني المشهد، وبكيت كثيرًا، ونعيته وحزنت عليه حزنًا ملأ قلبي، ولم أنسَ قصته وصورته وألمه. مات بهلول صاحب المواويل الحزينة والنَّاي الحزين، مات القوَّال صاحب الجُرح الذي كان ينزف دمًا وصديدًا وحسرة على دلال، مات صاحب البسمة الضحوك الذي كان يُسعدنا وهو ليس بسعيد، مات العاشق المخلص لعشقه الوفيُّ لحبه، الذي لم يترك ديار حبيبته، بل بقي بعدها ليعيش الذكريات حتى مات في بيت حبيبته، افترسته الذئاب. مات البسيط المرح، مات الذي لم يذق ملذات الدنيا وعاش للذكريات، ومزقت الذئاب جسده ليلًا بلا رحمة ولا شفقة.

ألم تعلم الذئاب أنه عاشق، والعشاق أرق أفئدة؟!

ألم تعلم الذئاب أنه ممزق القلب من الحب والفراق؟!

ذئاب ليس عندها رحمة، مزقته وهو في دار دلال، وهو يعيش الذكريات، ويتلمس نور حبيبته وزوجته التي لم يدخل بها، يا لها من ذئاب قاسية القلوب مسمومة الأنياب!!

ألقيتُ النظرة الأخيرة على جثة بهلول قبل وضعها في النعش لتُحمل للمقابر إلى حاجر الدهسة؛ ليُدفن مع حبيبته وزوجته دلال، ولقد أوصى بذلك، ولقد كنا نسمعه يقول كثيرًا: «هجيلك قريب يا دلال»، وحُمل على الأعناق.

وأحسستُ أن كل شيء يودع «بهلول» الوداع الأخير حتى الأشجار على الجسر: النبقة، ونخلة جدي التي كان يتسلقها بهلول ليأتي لنا بالبلح منها، وشجرة السيسبان حزينة؛ لأن «بهلول» كان يجلس تحتها معنا، وكذلك أحسست أن الجسر يودعه، ويقول له:

«سلامي لدلال يا بهلول، الوداع».

الكل حزين، وأنا عيناي لم تكف عن الدموع، ولم يسكن قلبي، وقد ملأني الحزن، وتغير حالي، ولزمت الوحدة والصمت حزنًا على بهلول.

بعد يومين كنا نجلس أنا والأولاد على الجسر ولا قصة لنا إلا قصة بهلول.

قال لنا عبد الرحمن أبو عودة:

- أتعرفون ماذا حدث؟

انتبهنا جميعًا:

- «إيه اللي حصل؟»

قال: «لقد وقعت نخلة بهلول الليلة دي، أوقعتها الرياح».

قلت له:

- إنما وقعت حزينة على فراق حبيبها بهلول.

تمت

زمن الرواية 1950 إلى 1977.

كُتبت من الذاكرة عام 2019.

معاني بعض الكلمات:

1 – الجسر: ساتر ترابي كان يحجز مياه النيل عند الفيضان، ارتفاعه حوالي 6 أمتار، طوله 40 كم.

2 – الخطَّاطة: ضاربة الودع.

3 – الطَّلعة: زيارة المقابر.

4 – شجرة السنط: شجرة بها شوك تخرج الصمغ.

5 – النبقة: شجرة السدر.

6 – شجرة الصفصاف: شجرة تشبه شجرة الكافور، خضراء مورقة.

7 – شجرة السيسبان: تشبه شجرة الصفصاف، لكنها صغيرة وطويلة.

8 – الجمَّالة: من يعملون على الجمل يحملون عليه الأشياء.

9 – المنون: كعك لكن حجمه صغير.

10 – المُدرِّي: من يعزل الغلة من التبن.

11 – الجـرن: هـو وضـع قـش القمـح بعـد حصـاده في مكان قبل درسـه.

12 – المُرة: ترعة كبيرة .

13 – الرحى: حجر فوق حجر صغيرة لطحن الحبوب.

سيد الرشيدي

- روائي، وقاص، وشاعر، وباحث في تراث البادية المصرية.
- تخرج في جامعة الأزهر الشريف.
- عمل مدرسًا للغة الإنجليزية.
- عمل إداريًّا ومدرسًا لتعليم العربية للناطقين بغيرها.
- مسقط رأسه: قنا - نجع حمادي - بهجورة - عرب الرشايدة - يقيم بالقاهرة.

من أعماله:

- أنا غرس القبيلة - ديوان شعر.
- كان حُلماً - ديوان شعر.
- نسيم النيل وأشواقي - ديوان شعر.
- خالتي حميدة - رواية.
- الناي يتحدث - مجموعة قصصية.
- قطوف من وحي القلم - نثريات.
- هل تريد بيتًا في الجنة؟

- صلاة الملائكة على المؤمنين.
- العروس المنتظرة
- قبيلة الرشايدة في مصر.
- عرب بوادي شعر بدوي.
- سيد أحمد عبيد أحمد عبيد (سيد الرشيدي)

فهرس الموضوعات

الإهداء 5

1 – الجسر 7

2 – الحضرة 16

3 – دلال 23

4 – القوَّال 36

5 – النخلة 47

6 – فرح 54

7 – الخطَّاطة 59

8 – شجاعة ورجولة 71

8 – الونسة 78

9 – ظل السَّيسبان 84

10 – يوم الخميس 89

11 – الطَّلعة 95
12 – العيد 101
13 – السواقي حربي 106
14 – لعب الكرة على الجسر 109
15 – الحاوي 112
16 – محاسن الطبَّالة 118
17 – الجمَّالة 121
18 – فهمي المدرِّي 127
19 – غفير الجرن 130
20 – الأستاذ علي 135
21 – طحين القمح 142
22 – النَّبقة 146
23 – الذئب 155